doi.org/10.52866/esj.2021.01.17.11

الضغوط الاجتماعية والنفسية في الشعر الجاهلي

أ.م.د. فاضل عواد احمد
كلية السلام الجامعة

المستخلص :

كلنا نعلم ما للضغوط الاجتماعية والنفسية من آثار جسام على النفوس فترهقها وتقلقها، والقلوب تتعبها وتقلقها، وتحيل الأجساد عظاما، وسنذكر بعض الوقائع والشواهد التأريخية التي تسعفنا وتؤيد ما ذهبنا إليه، إذ لم تغب عن ذاكرة العرب واقعة داحس والغبراء بين عبس وذبيان[1] التي أهلكت الحرث وقطعت النسل، وأثارت الفتن والضغائن القديمة، وأججّت الكراهية والبغضاء بين أفراد القبيلتين، وكلاهما من مضر، وكان السبب في اندلاع الحرب بينهما سباق بين أفراس أميرين من عبس وذبيان وهما: قيس العبسي وفرساه: داحس والغبراء، وحذيفة الذبياني وفرساه: الخطّار والحنفاء، وكان الحكم انفعالياً، انفرادياً، تسلطياً، للدخول في حرب[2]، لا تبقى ولا تذر "فسيادة الانفعال وغياب العقل أحد مظاهر التخلف"[3]، وكان عليهما العودة إلى حكمائهم وأهل مشورتهم أصحاب الصدور الواسعة، والأحلام الرصينة لاحتواء الأزمة والظروف الصعبة، المستعصية على الحل، فيجب مشاركة العقلاء في مثل هذه القرارات الخطيرة، المهددة للأمن الغذائي والاجتماعي والنفسي.

Social and psychological pressures in pre-Islamic poetry

Dr.. Fadel Awad Ahmed / Peace University College

Abstract :

We all know the grave effects of social and psychological pressures on the souls, exhausting them and worrying them, and the hearts tire them and turn them back, and the bodies turn into bones, and we will mention some historical facts and evidence that help us and support what we went to, as the Arab memory did not lose sight of the incident of gossip and the stupidity between Abs and Zebian that was destroyed. The plowing and cut off the offspring, stirred up strife and old resentments, and fueled hatred and hatred between members of the two tribes, both of which were harmful, and the reason for the outbreak of the war between them was a race between the mares of two princes from Abs and Dhibian, namely: Qais al-Absi and his Persians: Dahas and al-Ghobra, and Huthafa al-Dhibiani and his Persians: Al-Khattar and Al-Hanifa. The ruling is emotional, unilateral, authoritarian, to enter into war, which does not remain and does not excuse, "the prevalence of emotion and the absence of reason is one of the manifestations of backwardness", and they had to return to their sages and the people of their advice, the owners of wide breasts, and sober dreams to contain the crisis and difficult circumstances, which are difficult to solve The rational person must participate in such dangerous decisions that threaten food, social and psychological security.

(1) الكامل/ ابن الأثير: 1/ 469-480، تأريخ العرب قبل الإسلام/ جرجي زيدان، ص319-322.
(2) سرح العيون، ابن نباتة المصري، ص156.
(3) في اللاهوت والسياسة/ سبينوزا، ص15.

المقدمة

تعد المشاركة ضرورة اجتماعية ليعم السلام، ويحل التكافل الاجتماعي للحفاظ على أسباب العيش ومصادر المعاش، لأن القضاء على السلوك "الانفعالي خطوة جادة مؤثرة نحو العقلانية"[1]، ليتم التوازن العقلي ويكون العقل حكماً بين المتحاربين، ومما زاد الطين بلّة قيام قيس العبسي بقتل ابن حذيفة الذي أرسله والده لتهدئة الخواطر وإطفاء الفتنة، وقيام بنو ذبيان بقتل مالك العبسي، أخ للأمير قيس، وكان الربيع بن زياد معتزلاً الحرب، فلما قتل ابن أخيه مالك شقّ عليه ذلك ودخل في لهيبها سيفاً وقلباً محطّماً، ونفساً ثائرة، فقاتل الذبيانيين وهو يقول في مالك:

منع الرقادَ فما أغمّضُ ساعةً
جزعاً من الخبر العظيمِ الساري
أفبعدَ مقتلِ مالكٍ لمضيعة
يرجو النساءُ عواقبَ الأطهارِ؟[2]

علماً أن من عادة العرب ألا تندب القتيل حتى يُؤخذ بُثأره، فأتمّ شعره بعد أن اهتز غضباً وانتقاماً وأطلق حسراته وآهاته معبّراً عما يجيش في صدره من آلام مبرحة وأحزان متصلة، ليقول واصفاً النادبات على القتيل مالك:

من كان محزوناً بمقتلِ مالكٍ
فليأتِ نسوتَنا بوجهِ نهارِ
يجدُ النساءَ حواسراً يندبنهُ
ويقمنَ قبلَ تبلّجِ الأسحارِ[3]

(1) م.س، ص15.
(2) العواقب: آخر كل شيء، وما يأتي بعد النسل الأول. الأطهار: جمع: طاهر، وكذلك: أيام طهر المرأة بعد التخلص من آثار الحيض بالاغتسال.
(3) أراد قبل شروق الشمس وبداية الفجر.

يضربن حرَّ وجوهِهنَّ على فتىً
ضخمِ الدسيعةِ غيرِ ما خوّارِ[4]
قد كنَّ يكنينَّ الوجوهَ تستّراً
فاليومَ حين برزنَ للنظّارِ[5]

وقد استفزت – تلك الحرب الرحى التي طحنت كل شيء – مشاعر فارس عبس وشاعرها عنترة بن شداد، وكم تمنى موت تلك الأفراس التي جنت على أصحابها، وجلبت الموت بسنابكها، فقال:

فليتهما لم يجريا نصفَ غلوةٍ
وليتهما لم يُرسلا لرهانِ[6]
وليتهما ماتا جميعاً ببلدةٍ
وأخطأهما قيسٌ فلا يُريانِ
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمةً
تبيدُ سراةَ القوم من غطفانِ[7]

وكان للضغوط النفسية أثرها ليتمنى عنترة الموت بدلاً من مالك، لما له من طيب منبت، وحسن صنيع، وكمال صفات، وما كان عليه من مخايل المروءة والنجدة والفعل الجميل ليقول:

ألا يا غرابَ البينِ في الطيرانِ
أعِرني جناحاً قد عُدمتُ بناني[8]
تُرى هل علمتَ اليومَ مقتلَ مالكٍ
ومصرعَه في ذلّةٍ وهوانِ ؟

(4) حرّ الوجه: ما بدا من الوجنة، مرتفع الخد. الدسيعة: العطية الجزيلة والمائدة الكريمة. خوّار: ضعيف.
(5) الكامل/ ابن الأثير: 1/ 474، وسرح العيون/ ابن نباتة المصري، ص158.
(6) الغلوة: مسافة معينة من السباق.
(7) م.س: 1/ 475، وديوانه/ دار الهلال، ص250. الحين: الهلاك والموت والمحنة. مرآة القوم: ساداتهم. انظر: المنجد في اللغة والأعلام فيما ورد فيها من معان المفردات.
(8) أراد بالبنان أن مالكاً كان سنده ويمينه في الحروب والظروف الصعبة.

لقد كان يوماً أسودَ اللون، عابساً

يخافُ بلاهُ طارقُ الحدثانِ[1]

فللهِ عيناً من رأى مثلَ مالكٍ

عقيرةَ قومٍ إن جرى فرسانِ[2]

إلى قوله:

فوا أسفاً كيف أنثنى عن جوادهِ

وما كان سيفي عنده وسناني ؟

رماه بسهمِ الموت رامٍ مصممٌّ

فيا ليتهُ لمّا رماهُ رماني

فسوف ترى إن كنتُ بعدك باقياً

وأمكنني دهرٌ وطولُ زمانِ

وأُقسمُ حقّاً لو بقيتَ لنظرةٍ

لقرّتْ بها[3] عيناك حيَن تراني[4]

وبقيت الحرب على أشدّها، مستعرة بعد أن رُكنت العقول جانبا، وغيّبت الحكمة، واستُنفرت قوى الشر والظلام، وأُغلقت أبواب الخير والأمان، وأصبحت السيوف هي الحكم الفصل بين الفريقين، فالسيوف لا تفرّق بين رأس وآخر، فالكل سواء، ولا فرق وتمييز بين رأس حكيم عاقل ورأس طائش، جاهل، أو بين أمير أو صعلوك، كلما في الأمر أن تقطع كل متحرك وهي أمامها، حتى أُرهقت النفوس، وتعبت الأجساد، ولم تعد الأيادي قادرة على المصاولة والمطاولة، وأُصيبت الحياة بالشلل التام، فلا أمن ولا نجاة ولا استقرار لأحد، فليس هنالك منتصر أو خاسر، فالجميع قد خسروا، إذ تقطعت سبل الحياة، واستحر القتل بين عبس وذبيان وكادا يفنيان بعد أربعين سنة من الدمار والخراب، فبدأت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية على من أشعل فتيل الحرب وفتح بوابة الشر لإيقافها وإنقاذ ما تبقى من متاع قليل وأنعام شاردة مشرفة على الهلاك، وأرواح إنسانية متعبة، مرهقة حتى النخاع، إذ كثرت الأرامل وتشتت اليتامى والمحاربون بين قتيل وجريح ومفقود، فتدخّل أرباب المروءة والنجدة ورواد السلم الاجتماعي، وأنصار المحبة والسلام، وأصحاب القلوب الرقيقة، السليمة، التي اهتزت عاطفة ورحمةً وإنسانيةً لإغماد السيوف وردّ الرماح على من رماها، فكان هؤلاء الرجال من سادات بني مرّة، وهما: هرم بن سنان[5] والحارث بن عوف[6]، اللذان جعل للصلح باباً، ليتحملا دفع ديات القتلى جميعاً، وبلغت دية القتلى ثلاثة آلاف بعير[7]، فانبرى شاعر المعلقات زهير بن أبي سلمى، محذّراً من الوقوع مرةً أخرى في أتون حرب كهذه وهو يقول: ناصحاً، ومسدّداً بكل صدق وإخلاص، إذ هو من حكماء الشعراء:

وما الحربُ إلا ما قد علمتم وذقتمُ

وما هو عنها بالحديث المرجّم[8]

متى تبعثوها، تبعثوها ذميمةً

وتضرَ إذ ضريتموها فتضرمِ[9]

(1) ما يطرق ليلًا من الحوادث والأخبار المؤلمة.

(2) ديوانه/ دار الهلال، ص250، العقيدة: ما جرح في الصيد، وأراد أن مالكا له السبق والتقدم في كل حرب ومفاخرة وسباق.

(3) قرّت العين: سّرُت وازدادت فرحا.

(4) م.س، ص250-251، الكامل/ ابن الأثير: 1/ 474-475.

(5) أنظر: جمهرة أنساب العرب/ ابن حزم الأندلسي، ص252، نهاية الأرب/ أبو العباس القلقشندي، ص 382.

(6) جمهرة النسب/ هشام الكلبي، ص417، وسرح العيون/ ابن نباتة المصري، ص158-159.

(7) م.س، ص161.

(8) الحديث المرجّم: الذي يشوبه الشك والظن ولا تُعرف حقيقته.

(9) تضر: تزداد التهاباً، واشتعالا.

تعركـكـم عـركَ الرحـى ثفـالهـا
وتلقـح كِشافـاً ثـم تنتـجْ فتتئـمِ[1]
فتـنتـج لكـم غـلمانَ أشـأمَ كلّهم
كأحمرِ عادٍ[2] ثم تُرضِع فتفطمِ[3]

وأخـذ الشـاعر الحكيـم يثنـي عـلى سـادات بنـي مـرة: هـرم بـن سـنان والحـارث بـن عـوف اللذيـن تعهدا عـلى دفـع ديـات القتـلى جميعـاً بعـد إقامـة الصلـح بـين القبيلتـين، وإعـادة التكافـل الاجتماعـي بينهـما، وأواصر العلاقـات الإنسـانية، وإزالـة الضغـوط النفسـية التـي أثقلـت القلـوب وأتعبـت النفـوس، ومـن ثـم حمايـة مـا تبقـى مـن الرجـال والمتـاع والأرامـل والأيتـام وسـبل العيـش الكريـم وأواصر المحبـة والسـلام لعبـس وذبيـان بعـد أربعـين مـن السـنوات العجـاف، المدمـرة، المؤلمـة، فقـال:

فأقسمتُ بالبيت الذي طافَ حوله
رجـالٌ بنوهُ مـن قريـشٍ وجُرهـمِ[4]
يمينـاً، لنعَـم السيـدانِ وجدُتُـمـا
على كل حال من سحيـلٍ ومبرَمِ[5]

تـداركتُمـا عبساً وذبيـانَ بعـدمـا
تفانَوا ودقّـوا بينهم عطـرَ منشـمِ[6]
وقد قلتما: إن نـدركَ السّلـمَ واسعاً
بمـالٍ ومعـروفٍ من القـولِ نسلمِ
فأصبحـتما منهـا عـلى خيرِ مـوطنٍ
بَعيدينِ فيهـا من عقـوقٍ ومـأثَـمِ[7]
عظيمـينِ، في عُـليا معـدٍ هُديتمـا
ومَن يستبح كنزاً من المجدِ يُعظمِ[8]

ثـم يلتفـت مذكّـراً عبسـاً وذبيـان، طالبـاً منهـما أن يـبرّا بقسـميهما ولا يحنثـا مسـتقبلا، ولا يضمـرا الغـدر ونقـض العهـد، فـإن أضمـرا ذلـك فـإن الله سـبحانه الشـهيد عليهـما، الـذي أحـاط بـكل شيء علـما، ووراءهما حسـاب عسـير يـوم القيامـة أو ينتقـم منهـما في الدنيـا قبـل الآخـرة، ونـرى المعـاني الإسـلامية واردة في شـعره وكأنـه شـاعر إسـلامي لما وهبـه الله تعـالى مـن الحكمـة والإلهـام الصحيـح والعقـل الرشـيد لصـدق مقاصـده وصفـاء نواياه، ليقـول:

ألا أبـلـغ الأحـلافَ عني رسالـةً
وذبيانَ: هل أقسمتُم كلّ مُقسمِ
فلا تكتمـنَّ الله ما فـي نفوسكم
ليوم الحساب أو يعجّل فينقَمِ[9]

---

(1) تعرككـم: تطحنكـم، الثفـال: خرقـة أو جلـد يوضـع حول الرحـى لجمـع الطحـين فيهـا. شـبه تلـك الحـروب ومـا يتولـد منهـا مـن ثـارات ونزاعـات بنتـاج النيـاق والنعـاج سـواء ولـدت مرتـين في السـنة أو تؤأمـين، ولا تنتـج تلـك الحـروب إلا أولادً يجلبـون الشـؤم لآبائهـم، الكشـاف: النعجـة التـي تلقـح مرتـين في السـنة، والناقـة تلـد توأمـين.

(2) أراد أحمـر ثمـود قـدار بـن سـالف الـذي عقـر ناقـة صالـح عليـه السـلام فـكان سـبباً في دمـار قومـه لقولـه سـبحانه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ الشـمس/ 14. انظـر: التعريـف والأعـلام/ عبـد الرحمـن السـهيلي، ص377.

(3) شرح القصائد العشر/ الخطيب التبريزي، ص174-175.

(4) البيـت: الكعبـة المشرفـة، وجرهـم: قبيلـة قديمـة، وكانـوا ولاة الحـرم ثـم اسـتولت خزاعـة عـلى البيـت ثـم عـادت إلى قريـش أخـيرا.

(5) السـحيل: الحبـل المفتـول عـلى قـوة واحـدة والمبرم: المفتـول عـلى قوتـين أو أكثـر، وأراد أنهـما يسـاعدان كل النـاس، في حال الضعف أو القوة.

(6) تحالـف قـوم عـلى الوفـاء والقتـال فوضعـوا أيديهـم في عطـر امـرأة عطـارة، اسـمها: منشـم، لئـلا ينسـوا العهـد بينهـم، ومـا أن خرجـوا للحـرب حتـى قتلـوا جميعـاً فتشـائم العـرب منهـا، وضرب المثـل بهـا، فصـارت عبـس وذبيـان بمنزلـة أولئـك مـن شـدة الحـرب.

(7) العقـوق: قطـع صلـة الرحـم، وبأنهـما بعيديـن مـن كل محـرم ومـا يعيـب لكمالهـما وشرفهما.

(8) كأنـما في أعـلى درجـات المجـد والنبالـة والـشرف، انظـر: شرح المعلقـات العـشر/ أبـو عبـدالله الـزوزني، ص139-140، شرح القصائـد العـشر/ الخطيـب التبريـزي، ص165-168.

(9) شرح القصائـد العـشر/ الخطيـب التبريـزي، ص170-

هكذا انتهت الحرب بجهود المتميزين، المحبين لأفعال الخير وإغاثة من يحتاج العون والمؤازرة والمساعدة، ولحياة أفضل وأكثر أمناً واستقرارا، فكانوا أهلاً لها، وسُجّلت مآثرهم وأعمالهم في مقامات الرجال وسجل الشرف الإنساني، وحقوق الإنسان، والريادة الاجتماعية، فقد صرفت الأموال، ودفعت الديات الثقيلة، وأُخمدت نار الفتنة منذ زمن بعيد ولكن ما فعلاه سيبقى خالداً في ديوان العرب وسفر الخالدين، فاستحقا التقدير والثناء فخلّد فعلهم الجميل، شاعر الحكمة زهير بن أبي سلمى في معلقته، ولا أحد ينسى أسماء هذين النبيلين: هرم بن سنان والحارث بن عوف سادات بني مرة وما قاما به، كما ذكرنا ذلك آنفاً.

وسنذكر حرباً أخرى مفزعة، مهلكة، لا تقل أثراً وشأناً من داحس والغبراء ألا وهي حرب البسوس بين بكر وتغلب، فقد أجارت البسوس[1] رجلاً أسمه سعد الجرمي، وكان له ناقة ترعى مع نوق جساس بن مرة البكري، وكان صاحب المرعى الطاغية كليب بن ربيعة التغلبي[2] وما أن رأى الناقة حتى صوّب سهمه فأنفذه في ضرعها فوّلت هاربة ولها عجيج وصراخ، ولما رآها صاحبها الجرمي صرخ قائلاً: "يا للذل" ولم يعلم كليب الظالم أن الضرع مقدس عند العرب، فهو توأم الخصب والحياة، ودليل الحوار وأمن الطفولة، وغذاء القوم، ولما سمعت البسوس صراخ من استجار بها وضعت يدها على رأسها وهي تصيح: "وأذلاه" تشير إلى ما لحقها من العار والذل بسبب ما حصل لمستجيرها، ونحن نعلم ما للإجارة والمستجير من منزلة عظيمة وحرمة لا يجوز هتكها، وهذه من مآثرهم ومفاخرهم، فسمعها جساس وقال لخالته البسوس وصاحب الناقة: "إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة[3]"، يقصد بذلك كليبا زوج أخته جليلة، فأخذ رمحه وانطلق غاضبا، حتى رأى كليبا فرماه وأسقطه من فرسه قتيلاً، ولما علمت تغلب بذلك، ألغت كل مشورة ورأي وتفكير إذ طار صوابها ولم يعد للصبر منزع، وأخذت النساء بالعويل ولطم الخدود وشقّ الجيوب وخمش الوجوه، فأقمن المآتم وسرحنّ جليلة لتلحق بأهلها البكريين، لأن أخاها جساس قاتل زوجها، ومن العار بقاؤها في البيت، إذ الحرب قائمة والانتقام واقع، والثأر هو الحكم الفصل بين الدماء، وكان لكليب أخ أسمه المهلهل وهو فارس وشاعر مشهور بين القبائل وكان عند مقتل أخيه منشغلاً بالشراب واللهو فلما سمع بالخبر صحا ثم "جزّ شعره وقصّر ثوبه وهجر النساء وترك الغزل وحرّم القمار والشراب على نفسه"[4]، فجمع قومه للثأر لأخيه وتغلب معاً، قبل أن يبرد دم القتيل، يُقتلُ القاتل، وكان الضغط النفسي عليه ثقيلا، ثِقل أُحدٍ وجبال طي، وقال واصفاً النساء الباكيات:

كنّا نغار على العواتق أن تُرى
بالأمس خارجةً عن الأوطانِ[5]

173، وشرح المعلقات العشر/ أبو عبدالله الزوزني، ص143 – 144.

(1) وهي خالة جليلة زوج كليب وخالة جساس بن مرة البكري. انظر: سرح العيون/ ابن زيدون، ص93، معجم الشعراء الجاهليين/ د. عزيزة فوال، ص81.

(2) ومن بغيه وعتّوه أنه يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حِماه، ... ولا يورد أحد إبله في أرضه، ولا توقد نار مع ناره، ولا يُحتبى في مجلسه – لا يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها – ولا يُتكلّم إلا بإذنه)). سرح العيون/ ابن زيدون، ص92، تأريخ العرب قبل الإسلام/ جرجي زيدان، ص312.

(3) م.س، ص313.

(4) تأريخ العرب قبل الإسلام/ جرجي زيدان، ص314.

(5) العواتق: فتيات الحذور الحسان.

فخرجنَ حين ثوى كليب حُسّرا

مستيقناتٍ بعدَه بهوانِ[1]

فترى الكواكبَ كالظّباء عواطلا[2]

إذ حان مصرعهُ من الأكفانِ[3]

وليس هناك أفظع وأقسى على النفس العربية من رؤية الأخ لأخيه قتيلا وخاصة إذا كان الأخ من سادات القوم من شعرائهم وفرسانهم وما لتغلب من السيادة والنفوذ والمنعة بين العرب، وأراد والد جساس إطفاء الفتنة بدفع دية كبيرة لأهل القتيل وهي ألف ناقة حمراء ويأخذوا من شاؤوا من أبنائه وقتله بصاحبهم، فرفضوا وأرادوا جساساً أو أخاه هماما فهما كفء لدمه، أو يمكنّهم من نفسه لقتله فهو وفاء لدم كليب، أو أن يقوم بإحياء كليب، ومن الغرابة طلب إحياء الموتى منه، لأنهم جاؤوا قاصدين الثأر والقتال الدّامي والحرب التي ستطحنهم طحنا، وتبيد سراتهم، وتشتت شملهم، وتثكل أمهاتهم، وتفرّق أطفالهم، وتزيل أمنهم الاجتماعي، واستقرارهم الاقتصادي، وكان للتوتر العصبي والضغط النفسي والاجتماعي أثره الكبير على سادة القوم لاتخاذ الحرب منقبة وسمعة لهم، والثأر انتقاماً وسيادة، وما يؤكد ذلك قول المهلهل حين رأى صديقه البكري همام بن مرة بين القتلى: "ما قُتل بعد كليب أعزّ منك والله لا تجتمع بكر بعدكما على خير"[4]، وطالت الحرب سجالا، ليقول المهلهل:

بكرهِ قلوبنا يا آل بكرٍ

نُغاديكم بمرهفة النّصالِ[5]

لها لون من الهامات جَونٌ

وإن كانت تحادثَ بالصّقال[6]

ونبكي حين نذكركم عليكم

ونقتلكم كأنّا لا نُبالي[7]

ومن الوقائع المريرة، المثيرة، معركة يوم واردات بين بكر وتغلب وكانت الغلبة لتغلب وكثر القتل ببكر فذكرها المهلهل في شعره لأثرها الكبير على نفسه:

وإني قد تركت بواردات[8]

بجيراً في دمٍ مثلِ العبير[9]

هتكت به بيوتَ بني عُبادٍ

وبعض الغشم أشفى للصدورِ[10]

ولما يزل المهلهل يذكر أخاه كليبا ويستعيد ذكراه لما لمقتله من أثر بالغ على نفسه مؤكداً عزمه على القتال ليقول:

(1) الحاسر: من كشفت وجهها أمام الناس والجمع: حواسر، حُسَّر.

(2) المرأة: العاطل: التي تركت الحلي جانباً بسبب الحزن والألم.

(3) م.س، ص314.

(4) تأريخ العرب قبل الإسلام/ جرجي زيدان، ص315.

(5) ومن الغرابة أن يقول ذلك وهما أبناء عمومة، وأبوهم وائل، أساس البلاغة/ جار الله الزمخشري، ص39، جمهرة النسب/ هشام الكلبي، ص121، 486، 491، 564، 575.

(6) يريد أن صليل السيوف أبطل الكلام بين المتحاربين.

(7) سرح العيون/ ابن نباتة المصري، ص99.

(8) يوم واردات: كان بين بكر وتغلب. بجير: هو ابن الحارث بن عباد من سادات بكر وفرسانها ويقال: هو ابن أخته أو ابن أخيه، على أية حال أرسله للمهلهل لإيقاف القتال بينهما فقام بقتل بجير وهو يقول: «بؤ بشع نعل كليب» احتقاراً له، وكان الحارث قد اعتزل الحرب قائلاً: «لا ناقة لي فيها ولا جمل» فسارت مثلاً، فدخل الحرب وأحدث بتغلب مقتلة مذهلة، العبير: نوع من إخلاط الطيب ذو لون أحمر. نهاية الأرب/ أبو العباس القلقشندي، ص418، وسرح العيون، ص97-98.

(9) م.س، ص97-98.

(10) م.س، ص100. الغشم: أراد الجهل والظلم.

قتلوا كليباً ثم قالوا: لا تثبْ

فلا وربّ البيتِ ذي الإحرامِ

حتى يعضَّ الشيخُ بعد حميّةٍ

مما يرى جزعاً على الإبهامِ

وتجول ربّاتُ الحذور حواسراً[1]

يمسحنَ عرضَ ذوائبِ الإيتامِ[2]

وكان كليب لا يرضى ولا يجوز لأحد أن يوقد ناراً ما دامت ناره ملتهبة، وذلك لسطوته وكبريائه وعزّة جانبه، مع ذلك يذكر المهلهل تلك المنقبة لأخيه وإن كان ظلماً واعتداء على حرية الآخرين، ليقول في ناره:

نُبّئتُ أنّ النارَ بعدك أوقِدت

وآستبّ بعدك يا كليبُ المجلسُ[3]

وتكلّموا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ

لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم ينبسوا[4]

وهذا دليل آخر على الرعب الذي كان يحدثه كليب في نفوس الحاضرين إن وجد بينهم مما يجعلهم عاجزين عن الكلام عند وجوده، ومن الغريب أن يذكر العلاقة الحميمة والأسرية بين الحيين، لأنهما من أصل ومعدن واحد، ليقول مشيراً إلى أثر القتال في طحن القبيلتين، فالحرب كالرحى لا ينجو منها أحد:

كأنّا غدوةً وبني أبينا

بجنب عنيزةٍ رَحَيا مُديرِ[5]

كأن رماحَنا أشطانُ بئرٍ

بعيدٍ بين جاليها جرورِ[6]

تظلّ الخيل عاكفةً عليهم[7]

كأنّ الخيلَ تنهض في غديرِ[8]

ومن الوقائع العظيمة بينهما، واقعة الذنائب[9] التي دارت رحاها بين الحيين وكانت مقتلة مذهلة، أبيد فيها الكثير من بني بكر وساداتهم، فقال المهلهل فيها وهو بأقصى درجات الضجر من الحرب التي طالت مدتها، ليقول:

فإن يك بالذنائب طال ليلي

فقد أبكي من الليل القصيرِ

وأنقذني بياضُ الصبح منها

لقد أُنقذتُ من شرّ كبيرِ[10]

تمنى أن يطول الليل ليهدأ ويتخلص منها معافى لذلك أخذ بنصح قومه أن يوقفوا الحرب وهو يقول لهم: "قد رأيت أن تبقوا على قومكم فإنهم يحبون صلاحكم وقد أتت على حربكم أربعون سنة، وما لمتكم على ما كان في طلبكم بوتركم... وقد فني الحيان، وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد، ورب نائحة لا تزال تصرخ في النواحي، ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تُدفن، وسيوف مشهورة، ورماح مشروعة"[11]، وأخذ بالتفاؤل وحسن الظن بالأيام وعودة الأخوّة والصلات كما كانت ليكمل نصيحته "وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم، وتتعطف الأرحام حتى تتواصوا، أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم، ولا أستطيع النظر إلى قاتل

---

(1) حواسرا: كاشفات الوجوه تعبيراً عن الحزن وأثر الصدمة بقتل كليب.

(2) سرح العيون/ ابن نباتة المصري، ص99.

(3) استبّ له الأمر: استوى.

(4) م.س، ص92، لم ينبسوا: لم يتكلموا ولو بحرف واحد.

(5) الرحيان: إذا أدارهما مدير أثّرت إحداهما بالأخرى.

(6) الأشطان: جمع شطن، هو الحبل الشديد الفتل يستخرج به الماء من الآبار. وجال البئر: ناحيتها. الجرور من الآبار: البعيدة القصر.

(7) عاكفة: باقية عليهم، تمنعهم من الحركة والهروب كناية عن السيطرة التامة على العدو.

(8) م.س، ص101.

(9) م.س، ص100.

(10) سرح العيون/ ابن نباتة المصري، ص100.

(11) تأريخ العرب قبل الإسلام/ جرجي زيدان، ص314. الوتر: الثأر.

كليب، وأخاف أن أحملكم على الاستئصال، وأنا سائر عنكم إلى اليمن"[1]، لقد سئم الحرب فعلًا وأعلن اعتزاله منها، بعد أربعين سنة من الدمار وهلاك الحرث والنسل وكادت القبيلتان أن تفنيا، فقد "مات في أثنائها الشيوخ، ومشاخ الشباب، وشبّ الولدان، وولدت طبقة من الناس لم تكن بالحسبان"[2]، واعتقد أن وصيته الحكيمة قد أثّرت فيهم وكانت من أسباب نهاية الحرب وإيقاف القتال بين أبناء العمومة من أصل واحد كما ذكرنا، ولكن قد ضرب المثل بحرب البسوس وما فيها من الشؤم فقيل: "أكلتِ ابني وائل البسوس كما يأكل الحبَّ السوس"[3]، وضرب المثل بعزّة كليب فقالوا: "أعزّ من حمى كليب"[4]، واتخذ البعض يوم مقتل كليب تأريخاً لهم، ومن العجيب أن تطول حرب البسوس أربعين سنة مثلما طالت حرب داحس والغبراء، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

من الممكن أن يحتمل المرء قساوة الآخرين وظلمهم له، إذ ليس بينه وبينهم غير رباط الأخوة الإنسانية مع ذلك فهناك من يمزقه لسوء نواياه أو جهله وقلة إدراكه لوجوده، وما عليه من حقوق وواجبات اتجاه من يشاركهم الحياة الاجتماعية، ويساعدهم عند نزول الشدائد والمواقف الصعبة، ولكن من الصعوبة بمكان احتمال ظلم ذوي القربى، لأنهم الأقربون رحما، وتدعوهم أرحامهم للتعاطف والمواساة، وإسعاف من أرهقته الظروف المادية، وأتعبته المشاكل المستعصية الحل، وأنهكته العلل المرضية العارضة أو العضال، لما لصلة الرحم من أثر كبير على النفوس وإنعاشها وتهدئتها واستمالتها بمحاسن الكلام والأفعال الجميلة لتكون متفائلة، مشاركة، وصالحة لكل عمل مفيد ومؤثر، فتكون المنفعة شاملة، ويتم التكافل الاجتماعي وتسود المحبة والتآلف بين القربى والمجتمع كله، لهذا تألم طرفة بن العبد الشاعر ممن لامه وعاتبه دون ذنب أقترفه، أو إساءة صدرت منه لأحد، والأقسى من ذلك إذا قام بذلك رحمه وصميم نسبه، وشعره خير معبّر عما يعتلج في صدره وقلبه وخاطره، إذ تصاعدت أنفاسه شعراً وحرقةً وألماً وحسرات تتقطع يأساً وندماً على ما يحصل له فيقول:

فما لي أراني وابن عمّي مالكاً

متى أدنُ منه ينأ عني ويبعُدِ

يلومُ وما أدري علام يلومني؟

كما لامني في الحي قرطُ بن أعُبدِ[5]

ويصاب باليأس والإحباط وما لذلك من آثار بتشتيت الفكر، وإرهاق الذهن، واضطراب النفس وقلقها، وإنهاك الجسد، فيقول:

وأيأسني من كلّ خيرٍ طلبتهُ

كأنّا وضعناه إلى رمسِ مُلحَدِ[6]

نرى أمامنا نفساً مقهورة، وإنساناً يائساً من كل شيء، وما عساه أن يفعل ويأمل من آمال دفنت في قبر، ومن المحال أن تحيا من جديد، ومن ثم يعجب ممن يهجره ويبعده ويسيء إليه من غير إساءة اقترفها أو منقصة قام بها، وإذا اشتكى مما يعانيه من الظلم لا يجد مجيباً أو مسعفاً أو ممن يشاركه مأساته فيواسيه ليقول:

(1) م.س، ص314-315.

(2) م.س، ص314.

(3) أساس البلاغة/ جار الله الزمخشري، ص38-39.

(4) سرح العيون/ ابن نباتة المصري، ص92.

(5) شرح المعلقات العشر/ أبو عبدالله الزوزني، ص115-116، شرح القصائد العشر/ الخطيب التبريزي، ص130.

(6) م.س، ص131، شرح المعلقات العشر/ أبو عبدالله الزوزني، ص116.

بلا حدثٍ، أحدثتهُ كمحدّثٍ

هجائي، وقذفي بالشكاةِ ومُطَردي[1]

فلو كان ابن عمه غير مالكٍ لفرّج عن كربته ولأمهله زمناً ليرد أنفاسه ويكون على خير، لكنه لّما يزل يضيّق الأمر عليه سواء شكره أو سأله برّه وعطفه، أو يتخلص منه، وهذا ما ورد في قوله:

فلو كان مولاي امرءاً هو غيرهُ

لفرّج كربي أو لأنظر لي غدي

ولكنّ مولايَ امرؤٌ هو خانقي

على الشكر والتسآل أو أنا مُفتدِ[2]

حتى يبدع إبداعاً لا مثيل له، ليكون البيت التالي مثلاً يُضرب بين العرب، ويتمثل به الموجعون، ومن فقد الناصر والمعين من ذوي رحمه، والبيت وما فيه من المعاني الرائعة خير مواسٍ لمن عانى من أقاربه الهجران وتركه ظهريا، وقاسى ما لا يحتمل حمله، إذ هو زفرة عتب، ومنشور احتجاج وعجب وأسف، فتجلّت شاعريته وإبداعه فيه، ليقول:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً

على المرء من وقع الحسام المهندِ[3]

فذرني وخلقي، إنني لك شاكرٌ

ولو حلّ بيتي نائياً عند صرغدِ[4]

طرفة يتغلّب في آلامه، وعسر أيامه، وقلة مؤازريه وأعوانه، بعد أن تحامته العشيرة وأبعدته لإتلاف ماله في شرب الخمور والانغماس في الملذات حتى تمنى أن يكون من سادات العرب ووجهائهم وأغنيائهم، وما في ذلك من الرخاء وطراوة العيش وراحة البال والاطمئنان والاستقرار النفسي، أو يُردُّ خائباً وهو حسير، لا مال ولا عشيرة ولا صاحبة تؤويه ولا أبناء تحويه، ليقاسي غربة نفسية، واغتراب زمني واجتماعي، ناشئ من الضياع والوحدة وقلة المؤونة ونفاد المال ليقول متمنياً، راجياً تحقيق ما يأمله ويريده:

فلو شاء ربّي كنتُ قيسَ بن خالدٍ

ولو شاء ربّي كنتُ عمرو بن مرثدِ[5]

فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارتي[6]

بنون كرامٌ، سادةٌ لمسودِ[7]

فلما سمع بذلك ابن عمه أمر بنيه السبعة، أن يعطي كل واحد منهم عشراً من الإبل، ففعلوا ذلك وأعطوه لطرفة تهدئة لخاطره، ومواساة له، وأخذوا يفتخرون بذلك لما قاموا به، من صلة رحم، وفعل جميل وإغاثة موقوتة، لما لصداها من أثر كبير عند العرب.

ويُعد الثأر من أكثر العادات الاجتماعية إشكالية ومرارة وأثراً في الحياة العربية في العصر الجاهلي، إذ تجعل الموثورَ الذي لم يُدرك قاتلَ أخيه أو أبنه أو أي واحد من أسرته أو أقاربه ومن هم من أصله وصميم نسبه – عصبي المزاج، انفعالياً، لا يهدأ له

(1) شرح المعلقات العشر/ الخطيب التبريزي، ص135، شرح المعلقات العشر/ أبو عبدالله الزوزني، ص117.

(2) م.س، ص118.

(3) المضاضة: الألم والوجع، وأشد الحزن وأكثره أثراً في القلب والنفس. الحسام المهند: السيف المصنوع بالهند، وهو سيف قاطع، حاد جدّاً.

(4) م.س، ص118، شرح القصائد العشر/ الخطيب التبريزي، ص136. صرغد أو صرخد: قيل: اسم جبل أو حرّة بأرض غطفان، وقال ياقوت الحموي: أنه بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، أنظر: معجم البلدان/ ياقوت الحموي: 3/ 401، وشرح القصائد العشر/ الخطيب التبريزي، ص137.

(5) قيس بن خالد: هو ابن عم طرفة، وعمرو بن مرثد من سادات بني شيبان. انظر: شرح القصائد العشر/ الخطيب التبريزي، ص137.

(6) في المصدر السابق: كنت بدلًا من أصبحت، وعادني بدلاً من: زارني، انظر: م.س، ص138.

(7) م.س، ص137–138، شرح المعلقات السبع/ أبو عبدالله الزوزني، ص119.

بـال حتـى يلقـى المسيء لـه، أو القاتـل ليقتـص ممـن أساء إليـه أو قتل القاتـل، ويبقـى مترصداً، متتبعـاً آثار المخطـئ أو القاتـل بأقـصى مـا لديـه مـن قـوة وتصميـم مـن تتبّـع أثـر الـدم القديـم أو القريـب فالأمـر سيان، ومـا لهـذا البحـث والانتظـار والترصـد مـن آثـار سـلبية عـلى السـلوك والذاكـرة الإنسـانية والقـوى العقليـة، مـن إجهـاد وإرهـاق وضغـط نفـسي يـراوده ليـلَ نهـار بقلـق قـسري ينهكـه ويتعبـه لاعتقـاده أنـه لـن يظفـر بمـن أسـاء إليـه قـولاً وفعـلاً، وأهـدر كرامتـه وسـمعته بـين أبنـاء قبيلتـه، سـواء أكان المقـترف ذلـك فـرداً أم جماعـة، وهـذا مـا حصـل لعنـترة بـن شـداد مـع ابنـي ضمضـم فأثـارا حفيظتـه لشـتمهما عرضـه بالغيـب، لهـذا أضمـر لهـما مـا لم يتوقعـاه، وهـذا مـا أفصـح عنـه صدقـاً، وصراحـة عندمـا قـال وهـو يخشـى أن يمـوت دون أن يحقـق مـراده وينـال منهـما:

ولقد خشيتُ بأن أموتَ، ولم تكن
للحرب دائـرةٌ على ابني ضمضـمِ[1]
الشاتـمَيْ عرضي، ولـم أشْتِمهُمـا
والنـاذريـنَ، إذا لـم ألقَهمـا دمـي
إن يفعـلاً فلقـد تركـتُ أبـاهُـمـا
جزَرَ السبـاعِ، وكلّ نسـر قشعمِ[2]

وقـد اعـترف عنـترة بقتـل أبيهـما مـن قبـل، إذ لا ضـير أن ينـالا منـه وهـو قاتـل أبيهـما، مـع ذلـك فلـم يـرض أن يشـتما ويسـيئا إلى عرضـه، والشـعر يؤكـد العـزم عـلى الثـأر وتأصلـه في النفـس العربيـة ومـن الصعـب الانفـكاك والتخلـص منـه بسـهولة مـا لم تمـر أجيـال وأجيـال لـترك الأمـر بيـد أولي الأمـر ولكـن بعـد حـين، وهنـاك واقعـة أكثـر قسـوة وغرابـة ممـا كان مـع عنـترة، ومـا للثـأر مـن أثـر كبـير في اسـتفزاز النفـس واسـتنفار قـوى الـشر والضغائـن القديمـة لتلغـي الحكمـة والرؤيـة والعقلانيـة وتفسـد بـين النـاس أحوالهـم، وتنغّـص عليهـم حياتهـم، وتبـدد شـملهم، وتثير الحـزازات ومواطـن الفتـن بينهـم، وإثـارة النعـرات القبليـة الضـارة، المهـددة لكيـان القبيلـة، وتماسـك البنيـة الاجتماعيـة.

إذ ذكـر المؤرخـون أن المـكّاء الشـيباني نـزل ضيفـاً عـلى أحـد الطائيـين، ولا يعـرف أحدهمـا الآخـر، كلـما في الأمـر أنهـم رفـاق سـفر، ولكـن الضيافـة والقـرى مـن أجـلّ الصفـات عنـد العـرب، لهـذا قـام الطائـي بتقديـم الطعـام والـشراب، وظـلّا يشربـان الخمـر حتـى تذاكـرا السـيوف والمفاخـرة والمآثـر فقـال الطائـي: هـذه والله السـيف الـذي قتلـت بـه محلـم بـن سـيار الشـيباني، فـما أن سـمع المـكّاء بذلـك حتـى اسـتطار غضبـاً وشراراً ولم يـترك للحلـم موضعـاً، والتحـرّي مسـلكاً، وللعقـل والتدبـر في الأمـر والـكلام فـترة، بـل أخـذ السـيف مـن الطائـي وأهـواه عليـه فنـدر[3] رأسـه ليقـع في إنـاء الـشراب الـذي كانـا يشربـان فيـه[4]، أليسـت هـذه الواقعـة كافيـة لتأصـل الثـأر في النفـس العربيـة وثباتـه في مسـتقرها دون النظـر إلى عواقبـه الوخيمـة، ونتائجـه المهلكـة في قابـل الأيـام؟! والمعـروف لـدى علـماء الاجتـماع، أن الظـروف والمواقـف التـي يمـر بهـا الإنسـان هـي التـي تحـدد القيـم الأخلاقيـة الواجـب اتخاذهـا والتحـلّي بهـا، لإحـداث التـوازن بـين الظـرف والسـلوك العـام للأفـراد[5]، علـمًا أن الأخـلاق

(1) ابنـي ضمضـم همـا: هـرم وحصـين، شرح المعلقـات السـبع/ أبـو عبـدالله الـزوزني، ص257.

(2) م.س، ص257، شرح القصائـد العـشر/ الخطيـب التبريـزي، ص311-313، جـزر السـباع: تركـه مقتـولاً لتأكلـه السـباع وغيرهـا مـن الحيوانـات البريـة، كالذئـاب مثـلاً. القشـعم: الكبـير، المسـنّ مـن النسـور.

(3) ندر: أزال الشيء عن موضعه بسرعة وبقوة.

(4) جمهرة النسب/ هشام الكلبي، ص499.

(5) معجـم العلـوم الاجتماعيـة/ ناتاليـا يفريموفـا، توفيـق سـلوم، ص399 وبتـصرف تـام.

صفات أزلية غير قابلة للتغيير، فالتسامح والصدق والعدالة والإنصاف والكرم لا يمكن تغييرها حسب الظروف وإلا حدثت الفوضى لأنها: "سرمدية، ثابتة على الدهر، لا تتوقف على الظروف التأريخية، ولا على الفوارق القومية والطبقية"[1]، والدليل على بقاء القيم الأخلاقية كما هي، في أي زمان ومكان ما جرى بين الصحابة ﷺ ورسول الله ﷺ حين سألوه: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فيوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله، قالوا: ليس هذا نسألك قال: فعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[2]، وحين قال رسول الله ﷺ: "إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تُكتب له بمثلها"[3]، فقال حكيم بن حزام: "يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية، من صدقة أو عتاقة، وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ: أسلمت على ما سلف من خير"[4]، وما ذكرناه خير شاهد ومشير إلى خلود الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة التي تؤسس مجتمعاً إنسانياً، متماسكاً، فاضلاً، فقد حاول بعض الفلاسفة بناء مدن فاضلة كإفلاطون اليوناني[5] وأبو نصر الفارابي[6] ومن الاتفاقات العجيبة التي نستأنس بها أن أفلاطون أكد ما ذكره رسول الله ﷺ وذلك في القرن الرابع قبل الميلاد حين قال: "كلكم إخوان في الوطنية، ولكن الإله جبلكم، وضع في طينة بعضكم ذهباً، يمكنهم أن يكونوا حكاما، فهؤلاء هو الأكثر احتراماً، ووضع جبلة المساعدين فضة، وفي العتيدين أن يكون زرّاعاً وعمالاً وضع نحاساً وحديدا، ولما كنتم متسلسلين بعضكم من بعض، فالأولاد يمثلون والديهم، على أنه قد يلد الذهب فضة، والفضة ذهبا..."[7]، لذلك فوجود الثأر مركوزاً في النفس العربية بسبب التقاليد والأعراف والعادات التي أثبتته وأقرته أسلوباً للدفاع عن كيان القبيلة، وتأكيد أحقيتها في النيل ممن يسيء إليها أو يقتل أحد أفرادها، معنوياً ومادياً، والعرب تستميت بالدفاع عن عزة نفوسهم وكرامتهم وأحسابهم ومآثرهم، فكان الثأر أسلوباً للحفاظ على سمعتهم ومكانتهم بين القبائل العربية الأخرى ليكونوا أهلاً للحفاوة وتصدر المجالس، واليد الطولى في فضّ الخلافات والنزاعات والأشد قوة عند الحروب، وهنالك شواهد تأريخية تؤيد بقاء الثأر راسخاً في النفس العربية، ولولا

(1) م.س، ص74-75.
(2) صحيح مسلم/ شرح النووي: 15/ 134، واللؤلؤ والمرجان/ وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، ص559.
(3) م.س، ص31.
(4) م.س، ص31. اتحنث: أتقرب. عتاقة: تحرير العبيد.

(5) من فلاسفة اليونانيين المشهورين، وتلميذ سقراط، وصاحب نظرية المثل، والمدنية الفاضلة، والجدل الصاعد والنازل، وله مصنفات ورسائل وجوارات، وأسس أول أكاديمية في العالم، توفى سنة 347ق.م. تأريخ الفلسفة اليونانية/ يوسف كرم، ص62-111، وموسوعة الفلسفة والفلاسفة/ د. عبد المنعم الحفني: 1/ 157-161.
(6) سمي بالمعلم الثاني وأرسطو المعلم الأول، وبفضله توطدت أركان الفلسفة الإسلامية، مات 339هـ م.س: 2/ 941-943، وشذرات الذهب/ أبو الفلاح الحنبلي: 2/ 350-354.
(7) جمهورية إفلاطون/ ترجمة حنا خبّاز، ص29.

الضغـط الاجتماعـي والنفـسي لمـا بقـي للثـأر أثـر يُذكـر، ومـا لتلـك الضغـوط مـن آثـار سـلبية عـلى النفـس عنـد الغضـب والانفعـال الآني وفقـدان التـوازن العقـلي، والاتـزان النفـسي وهـذا مـا حـدث بـين ملـك الحـيرة، عمـرو بـن هنـد[1] والشـاعر عمـرو بـن كلثـوم التغلبـي[2]، حـين أراد الملـك إهانـة أم عمـرو ليـلى بنـت المهلهـل بـن ربيعـة التغلبـي[3] وعمهـا كليـب وائـل[4] وزوجهـا كلثـوم التغلبـي[5]، إذ أمـرت أم الملـك ليـلى قائلـة لهـا: ناوليني ذلـك الطبـق! فقالـت ليـلى: "لتقـم صاحبـة الحاجـة لحاجتهـا" فألحّـت عليهـا، فصاحـت ليـلى: "وإذلاه! يـا آل تغلـب"[6] فسـمعها ابنهـا عمـرو فثـار الـدم في وجهـه، ولم يعـد هنالـك وقـت للتفكـير والإنـاة والتـأني في اتخـاذ القـرار الحاسـم ومعرفـة نتائـج مـا سـيفعله، ولكـن كل مـا يريـده هـو الثـأر لكرامـة أمـه وسـمعة تغلـب، فـما كان منـه إلا أن يتنـاول سـيف الملـك نفسـه – الـذي كان معلقـاً في السـرادق – فيهـوي بـه عليـه، قاطعـاً رأسـه، إذ السـيف هـو الحكـم الفصـل بـين ملـك طاغيـة وكرامـة شـاعر وأم تغلبيـة لهـا مـن العـزة والأنفـة مـا تفتخـر بـه قبيلتهـا، فهـذا هـو الثـأر الايجـابي المطلـوب القيـام بهـا أمـام الجبابـرة والطغـاة ليكـون عـبرة لمـن لا يعتـبر، ثـم خـرج عمـرو بعـد مقتـل الملـك منادياً: "يـا آل تغلـب"[7] فأخـذوا مـال الملـك وخيلـه، وسـبوا النسـاء، ولحقـوا بالحـيرة[8]، ومـن الأعـراف القبليـة المؤسـفة جعـل اللـون مقياسـاً وحكـماً بـين النـاس ليفصـل بـين السـادة والعبيـد، وليـس للمـرء القـدرة عـلى تغيـير جلـده وطبيعـة جسـده وقـد جبـل عليـه إلهيـاً، ومـا لا يتفـق مـع الحكمـة والعدالـة وحقـوق الإنسـان اتخـاذ اللـون حاجـزاً اجتماعيـاً، فالإنسـان بنزاهتـه وصلاحـه ومـا هـو عليـه مـن الرشـاد وحسـن الخلـق والسـيرة الحسـنة وكـما العقـل ونبالـة النفـس وعزتهـا ومـا فيـه مـن مـكارم الأخـلاق وألطـاف السـجايا وسـمات الخـير، وهـذا مـا تجسـد في عنـترة بـن شـداد العبـسي وعـرف عنـه وبـان في سـلوكه وتصرفـه في حياتـه الاجتماعيـة وهـو الشـاعر، الفـارس، العفيـف، إذ روي أن بنـي تميـم أغـارت عـلى مضـارب بنـي عبـس وحماهـا حتـى هُزمـت عبـس وذُلّـت فاسـتطاع عنـترة أن يفـرّق شـمل بنـي تميـم ويدافـع عـن المدبريـن وحـال بينهـم وبـين رجـال بنـي تميـم، ولمـا علـم قيـس بـن زهيـر العبـسي، سـيد قومـه بذلـك لم يحتمـل قيـام عبـد بذلـك الأمـر الجليـل، فقـال حاسـداً إيـاه بعـد أن كـبر عليـه أن يدافـع العبـد عـن كـرام الرجـال: "والله مـا حمـى النـاس إلا ابـن السـوداء"[9]، فـردّ عليـه عنـترة بقصيـدة رائعـة، منهـا قولـه:

(1) هـو عمـرو بـن المنـذر بـن امـرئ القيـس، وعـرف باسـم أمـه هنـد بنـت عمـة امـرئ القيـس الشـاعر المشـهور، 533–578م. تأريـخ العـرب قبـل الإسـلام/ جرجـي زيـدان، ص278.

(2) مـن شـعراء المعلقـات، عـرف بفخـره وحماسـته، مـن سـادات قومـه، م.س، ص278، وشرح المعلقـات العشـر/ أبـو عبـدالله الـزوزني، ص198.

(3) مـن شـعراء تغلـب وفرسـانها ولـه قصائـد كثـيرة في رثـاء أخيـه كليـب. سرح العيـون/ ابـن نباتـه المـصري، ص96–102، تأريـخ العـرب قبـل الإسـلام/ جرجـي زيـدان، ص278.

(4) يـضرب المثـل بـه فيقـال: أعـز مـن حمـى كليـب، ذكرتـه في حـرب البسـوس آنفـاً، م.س، ص311–315، وسرح العيـون/ ابـن نباتـة المـصري، ص92–95.

(5) مـن سـادات قومـه وكان تغلـب قبيلـة لهـا شـأنها وخطرهـا بـين العـرب. شرح المعلقـات العشـر/ أبـو عبـدالله الـزوزني، ص194.

(6) تأريـخ العـرب قبـل الإسـلام/ جرجـي زيـدان، ص278–279.

(7) م.س، ص278–279.

(8) تأريخ العرب قبل الإسلام/ جرجي زيدان، ص279.

(9) ديوانه/ تحقيق خليل شرف الدين، ص77–78.

بكرت تخوّفني الحتونَ كأنني
أصحبت عن عرض الحتون بمعزلِ
فأجبتها أن المنيّة منهلٌ
لابدّ أن أُسقى بكأس المنهلِ
فأقِني حياءك، لا أباً لكِ واعلمي
إنـي امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقتلِ[1]
وإذا حملت على الكريهة لم أقل
بعد الكريهة ليتني لم أفعلِ[2]
إني امرؤ من خير عبسٍ منصبا
شطري، وأحمي سائري بالمنصلِ[3]
ولقد أبيتُ على الطّوى وأظلّهُ
حتى أنال به كريمَ المأكلِ[4]

وكان عنترة يعاني من صراع نفسي مرير بعد أن فقد الأمل، التعاطف والتواصل الإنساني بينه وبين من أساء معاملة الآخرين، وصادر حرياتهم، وصرّح مراراً بما يلاقيه من تعسف ونكران جميل، وهو الذي جعل كل قدراته وطاقاته المادية والمعنوية في رفع شأن قبيلته وإعلاء شأنهم بين القبائل وهم لا يعترفون بفروسيته ومواقفه المشرفة، وصولاته الكثيرة ورد على من يغير عليهم، وهم لا يلتفتون إليه ويتركونه ظهريا، بل يحسده بعض سادات قومه على ما هو عليه من الجرأة والإقدام والشجاعة عند المنازلة وصدام الخيل، وهو الأكثر صبراً في ميادين الوغى، والأشدّ قلباً عند المواجهة ليقول:

خلقتُ من الحديد أشدّ قلباً
وقد يلي الحديدُ وما بليتُ[5]

وقوله المؤكد عزمه وتصحيحه على مقارعة الأعداء:

خلقتُ للحربِ أحميها إذا بردت
واصطلي بلظاها حين أحترقُ[6]

ويذكّر قومه بأفعاله وحفاظه على كيانهم والدفاع عن حماهم:

أنا الحصنُ المشيد لآل عبسٍ
إذا ما شادت الأبطال حصنا[7]

لقد تجاوز عنترة عقدة النقص التي يشعر بها الآخرون من العبيد، وتعالى عليها بما فيه من العزم والتصميم على تحرير نفسه من ربقة العبودية والاضطهاد القسري المفروض عليه من قبل أناس فقدوا العدالة الاجتماعية وتعلقوا بأعراف قديمة لا تتفق وكرامة كل إنسان، وقد حاول عنترة كثيراً لإقناع سراة قومه المتعالين ظلماً على أبناء جنسهم، المتكبرين بأنسابهم وألوانهم، فاتخذ الفروسية بديلاً، والقيم الأخلاقية والشجاعة نسباً وحسباً ومعراجاً لتحقيق مراده الإنساني، وحفظ كرامته، فقال:

شبيهُ الليل لوني غيرَ أني
بفعلي من بياض الصبح أسنى[8]
جوادي نسبتي وأبي وأمي
حسامي والسّنان إذا انتسبنا[9]

فالمرء بأفعاله الشريفة ومواقفه الحسان، وهمته وجرأته لينال العلى ومقامات العزة والشرف، ولا أثر للأموال الجزيلة، وكثرة الأقارب الذين فقدوا المروءة والمواساة وإعانة من ينتسب إليهم، فقال:

فاختر لنفسك منزلاً تعلو به
أو مُتْ كريماً تحت ظلّ القسطلِ[10]

(1) فأقني حياءك: إحفظيه ولا تفرطيّ به.
(2) الكريهة: الحرب.
(3) المنصل: السيف.
(4) م.س، ص77-78، وقد أعجب رسول الله ﷺ قول عنترة المؤكد عفافه وعزة نفسه وكان يقول: «ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة»، م.س، ص10.
(5) ديوانه/ خليل مشرف الدين، ص143.
(6) م.س، ص174.
(7) م.س، ص97.
(8) أسنى: أكثر ضياءً وإشراقاً.
(9) م.س، ص97.
(10) القسطل: غبار المعركة.

إن كنتُ في عدد العبيد فهمتي
فوق الثريا والسمّاك الأعزلِ[1]
إذ أنكرت فرسانُ عبسٍ نسبتي
فسِنان رمحي والحسام يقرّ لي
ويذابلي ومهندي نلت العُلى[2]
لا بالقرابةِ والعديد الأجزلِ[3]

وأخذ يتسامى ويعلو على من دونه، ممن آثروا الذّل طمعاً في الدنيا، وهو العزيز بنفسه، الحرّ قلباً ولسانا، رغم قساوة بني قومه وتعاليهم عليه سفهاً وظلماً ليقول:

لا تسقني ماء الحياةِ بذلّةٍ
بل فاسقني بالعزّ كأسَ الحنظلِ
ماءُ الحياةِ بذلّةٍ كجهنمٍ
وجهنمٌ بالعزّ أطيبُ منزلِ[4]

وتألم كثيراً وقاسى وتقلّب على فراش من قتاد، بسبب بشرته السوداء، وهو المدافع، المقاتل دونهم، والذي يثني عليهم ويعتقدهم يستحقون الثناء والمديح والاعتراف بأحسابهم وأنسابهم، وهم ليس لديهم إلا الإساءة إليه، والتفريط به، وشتان ما بينه وبينهم، فهو المنصف، الكريم، وهم الناكرون لجميله، ومحاسن أعماله، فيقول:

لا يحملُ الحقدَ من تعلو به الرّتبُ
ولا ينالُ العلى من طبعهُ الغضبُ
ومن يكن عبدَ قومٍ لا يخالفهم
إذا جفوه ويسترضي إذا عتبوا
قد كنت فيما مضى أرعى جمالهم
واليومَ أحمي حماهم كلما نُكبوا
لله درُّ بني عبس لقد نسلوا
من الأكارمِ ما قد ينسلُ العربُ
لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسبٌ
يوم النّزالِ إذا ما فاتني النسّبُ[5]

ثم يقول مؤنّباً إياهم من طرف خفي بمديح يشبه الذّم تنكيلاً بهم، وتذكيراً بعدالته وظلمهم له، فحقيقة الإنسان سمعته الجيدة، وسلوكه الحسن، وأفعاله النافعة لأبناء جنسه، ولا يجوز أن تتلاشى شخصيته وتهدر كرامته، وينفرد مغترباً، بعيداً عن مجتمعه بسبب العرق أو الجنس أو اللون، إذ "يجب الإيمان بالقيمة العليا للوجود الإنساني ممثلاً بالفرد... إذ الوجود الإنساني الفردي هو أصل كل شيء في الحياة الإنسانية"[6]، وعنترة ذلك الفرد المتميز الذي يستحق المنزلة الرفيعة، والرتبة العلية، لدفاعه المستميت عن قبيلته رغم جفائها وإساءته له على الدوام، لذلك قال:

سوادي بياضٌ حين تبدو شمائلي
وفعلي على الأنساب يزهو ويفخرُ
ألا فليعش جاري عزيزٌ وينثني
عدوي ذليلاً، نادماً يتحسّرُ
هزمتُ تميماً ثم جندلت كبشَهم
وعدتُ وسيفي من دمِ القومِ أحمرُ[7]
بني عبسَ سودوا في القبائل وافخروا
بعبدٍ له فوق السماكينِ مِنبرُ[8]

(1) الثريا: مجموعة كواكب سميت بذلك لكثرة كواكبها، السماك الأعزل: من الكواكب النيّرة.
(2) الذابل: الرمح الدقيق. الذوابل: الرماح نفسها. المهند: السيف الهندي.
(3) م.س، ص176.
(4) م.س، ص178.
(5) م.س، ص151.
(6) فلسفة سارتر/ عبد الفتاح الديري، ص6.
(7) جند له: أسقطه على الجدالة وهي الأرض، كبشهم: سيدهم ورئيسهم.
(8) م.س، ص166، السماكان: كوكبان نيران، يقال لأحدهما: السماك الرامح لأنه أمامه كوكبان صغيران،

ففي السلم ينادونه بابن زبيبة الغرابيّة اللون، الأمة السوداء، وعند الوقيعة واتقاد الحرب ويحمي الوطيس ينادونه: يا ابن الأطايب، وشتان ما بين النذائين من خلاف ومعان مختلفة، بل التّضاد واقع وجلي بين الموقفين، وهذا دليل نفاقهم وضعفهم، وسمّوه وترفعه عليهم، وكل ما أراده الإنصاف والعدالة الاجتماعية، وكان كمن يطلب الريحان من أصول الحنظل، لكنه المثل الأعلى لطالبي الحرية والأكثر شعبية لعشاق التحرر والعدل الاجتماعي، وثابر على الحصول عليها، فقال معاتباً، شاكياً، هاجياً:

أعاتب دهراً لا يلين لعاتبِ
وأطلبُ أمناً من صروف النوائبِ
خدمتُ أناساً واتّخذت أقاربا
لعوني ولكن أصبحوا كالعقاربِ
ينادونني في السلم يا ابن زبيبةٍ
وعند صدام الخيلِ يا ابنَ الأطايبِ
سيذكرني قومي إذا الخيل أصبحت
تجول بها الفرسانُ بين المضاربِ
فإن هُمْ نسوني فالصّوارم والقنا[1]
تذكّرهم فعلي ووقعَ مضاربي[2]

علماً أن العبودية والرق والاسترهاق والاسترقاق، هذه الثلاثية المقيتة، البائسة، المؤلمة، لم يقتصر وجودها على الجزيرة العربية حسب، لكنها وجدت في العقائد القديمة وقبل الميلاد بمئات السنين كما في العقيدة الهندوسية، إذ جعلت المجتمع طبقات ثلاث: طبقة البراهمة، رجال الدين، لهم من الامتيازات والحقوق والقداسة ما لم ير التأريخ مثلهم، فهم المحافظون على "الفيدا" الكتاب المقدس للهندوس، ونالوا الطبقة الأولى في السلم الاجتماعي الهندي، وطبقة المحاربين، ثم طبقة التجار والصناعيين، والمزارعين، أما الطبقة المسحوقة فهي طبقة "السودرا" المنبوذون، وهم سكان الهند الأصليون[3]، وأنشأ هذا التقسيم من قبل الآريين والتورانيين[4] الذين سيطروا على الهند ما بين 2500 – 600 ق.م[5]، واعتمد هذا النظام الطبقي على العرق وسيادة الجنس، والآريّون هم النبلاء، وقد أطلقوا على سكان الهند الأصليين اسم المنبوذين، لأن الدّم الآري أو التوراني لا يجري في عروقهم، وأطلقوا عليهم "زنوج الهند" وقد حرمهم المجتمع الهندي حقوق الإنسان، حتى أوصلهم إلى مستوى أقل أحياناً من مستوى الحيوان، ولم يسمح لهم باعتناق الدين الهندوسي ويتخلقوا بآدابه[6]، ومُنعوا من الدخول إلى المدارس للتعليم ويقولون فيهم: "خلقوا أغبياء، بلداء، ولا يصلحون إلا للمهن السافلة والقيام بالخدمة، ولا يجوز لهم التسمّي بالأسماء الدالة على الاحترام والهيبة أو الجميلة، بل لهم الأسماء المأخوذة من الهوام والحشرات وما رذل ونجس من سائر الحيوانات الأخرى، ولم يستطع المتنوّرون من رواد المنظمات الإنسانية تغيير شيء من أحوالهم حتى اليوم، فمازالوا على البداوة وعبادة الأرواح والأحجار بسبب الظلم الاجتماعي، والاضطهاد القسري الذي يعانون منه، أما رجال الدين من البراهمة فلهم كل ما لذّ وطاب والمراتب العليا في المجتمع الهندسي، وهذه بعض مميزاتهم:-

والآخر: السماك الأعزل لعدم وجود شيء أمامه.
(1) الصوارم والقنا: السيوف والرماح.
(2) ديوانه/ خليل شرف الدين، ص252.
(3) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص59.
(4) م.س، ص58.
(5) الفكر الفلسفي الهندي/ د. بروفيالى، د. شارلزمور، ص 7.
(6) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص57.

1. إذا ولد برهمي وضع في الصف الأول من صفوف الدنيا.
2. البرهمي، محل لاحترام جميع الآلهة بسبب نسبه وحده، وأحكامه حجة في العالم، والكتاب المقدس "الفيد" هو الذي يمنحه هذا الامتياز.
3. كل ما في العالم ملك البرهمي، وللبرهمي حق في كل موجود. وإذا افتقر البرهمي فله الحق بامتلاك مال "السودري" المنبوذ، لأنه عبد له أصلاً من غير أن يجازيه الملك على ما فعل، فالعبد وما يملك لسيده.
4. لا يدنس البرهمي بذنب ولو قتل العوالم الثلاثة، أي الطبقات الثلاث: طبقة المحاربين والتجار والسودرا.
5. لا ينبغي للملك أن يجبي خراجا من برهمي، عالم بالكتاب المقدس، حتى لو مات الملك محتاجا، ولا يجوز له أن يصبر على جوع برهمي في ولايته.
6. على الملك أن يتجنب قتل البرهمي حتى لو اقترف جميع الجرائم، ولكن يجوز نفيه من مملكته إلى مكان آخر، على أن يترك له جميع أمواله وألا يصيبه بأذى.
7. على الملك ألا يقطع أمراً مهما كان دون استشارة البراهمة[1].

وهذا هو التطرف الديني المخالف للعدالة الاجتماعية إذ يسمح للبرهمي بمصادرة كل شيء وإزهاق أرواح الآخرين دون أن يحاسبه أحد حتى لو كان الملك نفسه، ومن الغريب إقرار العبودية في اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد وهي موطن الفلسفة والفلاسفة الكبار ورجال المنطق والمدارس الفلسفية كالرواقية الأخلاقية المؤيدة لكل الفضائل والعدل الاجتماعي والداعية بالتزام الفضيلة منهجاً أخلاقياً والعقل حكماً، والحكمة مناراً وأسلوب حياة فاضلة، مع ذلك فكام النظام الاجتماعي، طبقياً، فهنالك: السادة الأحرار، والأجانب الذي كانوا يعملون بالتجارة والمهن الحرة وثم طبقة العبيد التي خلقت للخدمة والعمل، حتى الفيلسوف أفلاطون[2] حمد الله سبحانه وشكره لأنه لم يخلقه عبداً، فقال: "أشكر الله أني ولدت يونانياً، لا بربرياً، حرّاً، لا عبداً، رجلاً، لا امرأة، ولكن علاوة على ذلك أشكره لأني ولدت في عهد سقراط[3]"[4]، وقد اعترفت الفلسفة الكونفوشيوسية[5] "بمكانة الفرد وقيمته دون النظر إلى طبقته وطائفته"[6]، وأراد كونفوشيوس إقامة مجتمع ديمقراطي فاضل، وقد أجمع الباحثون على: "أن الفكر الاجتماعي الصيني فكر يتصف بروح التحرر، والدعوة للفضيلة وقيم العدالة ونبذ العنف والقوة"[7]، أما الفلسفة المادية التأريخية الماركسية – اللينية فاعتقدت الاعتقاد الراسخ أن الإنسان هو المخلوق الوحيد العاقل،

(1) م.س، ص62-63.

(2) مرت ترجمته.

(3) من كبار فلاسفة اليونان وأستاذ أفلاطون اتهموه أعداؤه بإفساد عقول الشباب والإزداء بآلهة المدينة وسخريته من قصصهم، فحكموا عليه بالإعدام، وكان قادراً على الهرب، والعرف يعذر الهاربين، لكنه رفض وفضل الموت على الفرار المخزي، وهو الفيلسوف الحكيم، فاختار السم أسلوباً لموته، فشربه ثم مات سنة 399 ق.م. تأريخ الفلسفة اليونانية/ يوسف كرم، ص50-57، وموسوعة الفلسفة والفلاسفة/ د. عبد المنعم الحفني: 1/

(4) جمهورية أفلاطون/ حنّا خبّاز، ص14.

(5) نسبة إلى كونفوشيوس فيلسوف الصين وحكيمها، توفى سنة 479 ق.م، موسوعة الفلسفة والفلاسفة/ د. عبد المنعم الحفني: 2/ 1137-1141.

(6) علم الاجتماع المعاصر/ د. نبيل سليمان، ص25.

(7) م.س، ص25.

القادر على صنع تأريخه بنفسه، لأنه كائن خلّاق ومبدع، وهذا الخلق والإبداع يميّزه عن سائر الكائنات الحية التي تتكيف مع الطبيعة لتعيش وتبقى، أما الإنسان فلا يكتفي بالاكتفاء بل هو الذي يغير الطبيعة ويسيطر عليها بما يمتلكه من قوى معنوية ومادية، وقدرات وإمكانات هائلة يستخدمها للانتقال إلى عالم أفضل وأكثر تطوراً وصلاحاً للحياة الكريمة[1]، وكان عنترة من المبدعين، المتميزين في قبيلته، فقد هادنهم وأثنى عليهم وافتخر بالانتساب إليهم، وهم يعلمون تمام العلم أنه من الرجال الأفاضل والشعراء والفحول وصاحب المعلقات ومن الفرسان المشهود لهم في ميادين القتال ومنازلة الأعداء والمغيرين على حمى قبيلته، لكنه الحسد الذي أذاب كل مكرمة فيهم، وأتعب فكرهم، فلم يكن لديهم إلا الإزدراء والغض من منزلته، والتعامي عن صنيعه، وحاولوا مراراً لقهره واضطهاده وإبعاده عن مجالسهم ومنتدياتهم لئلا تتجه الأنظار صوبه وهو المتعالي بفضائله ورفعة سجاياه، مع ذلك كان يشعر بالإحباط بعد ان يئس من إصلاحهم وإعادتهم إلى جادة الرشاد ومرافئ الخير ليعاملوه معاملة الغرباء والحلفاء، وهذا ما أشار إليه في قوله:

أعادي صرفَ دهرٍ لا يُعادى
وأحتمل القطيعةَ والبعادا
وأظهر نصحَ قومٍ ضيّعوني
وإن خانت قلوبُهم الودادا
أعلّل بالمنى قلباً عليلاً
وبالصبر الجميل وإن تمادى
تعيّرني العدا بسواد جلدي
وبعضُ خصائلي تمحوا السّوادا
سلي يا عبلُ قومَك عن فعالي
ومن حضر الوقيعة والطَرادا
وردتُ بمهجتي بحرَ المنايا
ونار الحربِ تتّقدُ اتّقادا
ولولا صارمي وسنان رمحي[2]
لما رفعتْ بنو عبسٍ عمادا[3]

يُعدّ عنترة من رواد السلم الاجتماعي، والتحرر الفكري، ورجل التحدي، ونصيراً للضعفاء والمظلومين، وقد حاول تغيير مجتمعه القبلي، ليكون مجتمعاً فاضلاً، تسوده المحبة والتعاطف والتكافل الاجتماعي، واتخاذ الحكمة قوة أخلاقية وهادية للإنسانية، لنبذ العنف ومغادرة التعصب للعرق والجنس، والتعامل بلطف ورقة مع الآخرين، إذ قيمة الإنسان ما يقدمه لمجتمعه من صالح الأعمال وجميل الفعال ليكون صالحاً، نافعاً لأبناء جنسه وخلق الله جميعاً، فالأخوة الإنسانية يستظل بها جميع المتنورّين من أهل المروءة والصلاح والخير، مع كل ما أراده هو احترامه وترك ما هم عليه من الإزدراء والتجبر، فاحتمل من قبيلته القطيعة والهجران ونكران جميله، وصبر على أذاهم وأنفتهم وتكبرهم عليه، إذ هم السادة الأحرار الكبراء الذين لا يحفلون بالعبيد وما والاهم، وما هكذا أراد الله سبحانه تعالى، إذ فطر الجميع على الفطرة السليمة وحب الخير، والكلّ سواء أمام العدل الإلهي، رغم وجود الأديان السماوية في الجزيرة العربية كالإبراهيمية الحنيفية واليهودية والنصرانية التي تدعو كلها للمساواة والإنصاف وترفض العبودية واستعباد العباد وقد خلقهم الله تعالى أحراراً، وهداهم النجدين، طريق الخير وطريق الشر، وللإنسان حرية الاختيار فإتباع الصالح ومسلك

(1) م.س، ص75، 77.

(2) الصارم: السيف.

(3) ديوانه/ خليل شرف الدين، ص211.

الحق لأنه مرهون بعمله وما يكسبه من الصالحات وأعمال البر والخيرات، ولكن التطرف والتعصب الأعمى للأعراف المخالفة لطبيعة الإنسان وفطرته الصالحة ألغيا كل ما جاءت به الشرائع الإلهية العادلة، السمحاء، وكان عنترة على علم بذلك لأن أمه حبشية وعلى دين النصارى، وما في المسيحية من الألطاف والأخلاق الحميدة الشيء الكثير الداعية إلى العفو والتسامح والرفق وصحبة الآخرين، وبانَ ذلك في سلوكه وفضائله وتجسّد في شعره وحكمته، لهذا كانت معاناته قاسية، والضغط الاجتماعي والنفسي أثقلاه وأرهقاه، لكنه بقي صابرا، مثابراً على التحدي، ناصحاً على التخلق والتعلق بالزهد، رافضاً الترف المادي والرغبات الدنيوية جميعاً، لقد عُرف عفيفاً، طوال حياته، وهو القائل:

فلا ترضَ بمنقصة وذلٍّ

وتقنعُ بالقليل من الحطامِ[1]

فعيشكُ تحت ظلّ العزِّ يوماً

ولا تحت المذلّةِ ألفَ عامِ[2]

وقوله:

إذا كشف الزمان لك القناعا

ومدّ إليك صرفُ الدهر باعا[3]

فلا تخشَ المنيّة والتقيها

ودافع ما استطعتَ لها دفاعا

ولا تختر فراشاً من حريرٍ

ولا تبكِ المنازلَ والبقاعا[4]

ثم يطلق الحِكمَ تباعاً وتترى، وما استخلصه من تجارب حياته، فلا فوت ولا خلاص من الموت الذي يقف راصداً لكل حي، وما الأطباء بمأمن منه، وقد مات المداوى والمداوي ومن جلب الدواء، ليقول:

يقول لك الطبيبُ دواك عندي

إذا ما جسّ كفّكَ والذّراعا

ولو عرف الطبيبُ دواء داءٍ

يردّ الموتَ ما قاسى النّزاعا[5]

وليس من رأى كم سمعا، وشهد الحقائق كما هي، فنراه قد سأم من الحطّ من منزلته بسبب لونه الغرابي، ومن هو القادر على التخلي من صبغته الأبدية، ليقول لمن ينكر عليه إنسانيته وكرامته وعلو مقامه، متحدياً إياه بفروسيته ووقائعه، وليعلم من هو عنترة؟ فيقول:

وفي يومِ المصانع قد تركنا

لنا بفعالنا خبراً مُشاعا[6]

حصاني كان دلال المنايا

فخاض غمارَها وشرى وباعا[7]

وسيفي كان في الهيجا طبيبا

يداوي رأس من يشكو الصّداعا

أنا العبدُ الذي خُبرتَ عنه

وقد عاينتني فدعِ السّماعا[8]

ثم يردف قائلاً، ثائراً، مذكّراً أولئك الذين ينظرون إليه شزراً أو من طرف خفي للفضّ من علو شأنه وسمعته، فيقول:

أنا العبدُ الذي سعدي وجدّي

يفوقَ على السُّها في الارتفاعِ[9]

---

(1) الحطام: كل ما لا ينفع ولا يبقى، ومتاع الدنيا حطام قليل.

(2) ديوانه/ خليل شرف الدين، ص239.

(3) حروف الدهر: حوادثه ونوائبه.

(4) م.س، ص210.

(5) م.س، ص210.

(6) المصانع: الوقائع والمعارك والحروب.

(7) غمارها: أراد معظمها وأخطر المواقع وأكثرها مقتلاً في الحرب.

(8) م.س، ص211.

(9) سعدي: حظيّ وشأني. الجدّ: الاجتهاد والمثابرة والقوة

سموتُ إلى عنان المجدّ حتى[1]
علوتُ ولم أجد في الجوّ ساعي[2]

ويدهش عنترة من المفارقة العجيبة بينه وبين أولئك العتاة الذين ظلموه وملكوا ما لا يستحقون امتلاكه من الموالي والعبيد والخدم ورفاهية العيش، العاجزون من الدفاع عن أنفسهم وحماهم إلا ما ندر، وهو المقدام في طليعة المقاتلين، فيأسف لذلك وهو الأحق والأجدر بالاحترام وعزّة المقام، حتى يتقّد حرقة وألماً، ويشبّ لظىً، ليستطير شعراً يفصح ويعبّر عن معاناته وقسوة قومه فيقول:

أريدُ من الأيام ما لا يضرّها
فهل دافعٌ عني نوائبها الجهدُ
وما هذه الدنيا لنا بمطيعةٍ
وليس لخلقٍ من مداراتها بُدُّ
تكون الموالي والعبيد لعاجزٍ
ويخدمُ فيها نفَسه البطلُ الفردُ
وكلُّ قريبٍ لي بعيدُ مودّةٍ
وكلّ صديقٍ بين أضلعه الحقدُ
فيالك من قلبٍ توقّد في الحشا
ويا لك من دمعٍ غريرٍ له مدُّ
وإن تُظهر الأيامُ كلّ عظيمةٍ
فلي بين أضلاعي لها أسد وَردُ[3]

ولما يزل اللون المعادي يساوره ويراوده، سراً وعلانية، ويتسلل إلى ذاكرته ليثيرها لئلا ينسى القهر القسري والاضطهاد الاجتماعي له، ففي العقل الباطن وعالم اللاوعي خزين ثرّ من الذكريات المريرة التي عاشها ورافقت حياته الاجتماعية، وأحدثت انكساراً نفسياً تعالى عليه بصموده وشجاعته وعصاميته، وصدعا بينه وبين قبيلته، لا يمكن ترميمه أو إصلاحه، وهذا ما ورد في شعره:

ما زلت مرتقيّاً إلى العلياءِ
حتى بلغتُ إلى ذرى الجوزاءِ[4]
فهناك لا ألوي على من لامني
خوفَ المماتِ وفرقة الأحياءِ
ولأصبرنَّ على اللقاءِ لكي أرى
ما أرتجيه أو يحين قضائي
ولأحبسنَّ النّفَس عن شهواتها
حتى أرى ذا ذمّةٍ ووفاءِ
ما ساءني لوني واسمُ زبيبةٍ
إذ قصّرت عن همتي أعدائي[5]
فلئن بقيتُ لأصنعنَّ عجائبا
ولأبكمنَّ بلاغةَ الفصحاءِ[6]

لقد استنجد عنترة بصبره وبهمته إذ كان الصراع سجالا بينه وبين الأحداث الدامية التي عاشها، غارات وحروب، وثارات لا تنقطع مدافعاً عن حمى قبيلته ومآثرها وشرف انتمائها لكنه رفض الأبجدية القبلية وما فيها من الأعراف والتقاليد القديمة المضرّة، المخالفة لحقوق الإنسان، إلا يجوز التقيد والالتزام بما لا يتفق والأخوّة الإنسانية، وحرية الفرد ومقامه الأرضي، وكان يُمنّي النفس أن تتخلص قبيلته من هذه الثنائية البغيضة: هذا حر، وهذا عبد!! حتى جعلوا اللون أشبه بزجاجة لا يُجبر كسرها، لقد آثروا البغي والظلم على

والخبرة. السّها؛ السّهى: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى يعرف به قوة البصر.

(1) سموت: ارتفعت صعودا.

(2) م.س، ص226.

(3) ديوانه/ خليل مشرف الدين، ص260، والأسد الورد: الذي لونه ما بين اللون الأشقر والحمرة الضاربة إلى السواد والكشاف/ جار الله الزمخشري، مادة: كمت.

(4) الجوزاء: من أبراج السماء.

(5) زبيبة: اسم أمه وكانت حبشية سوداء اللون.

(6) ديوانه/ خليل شرف الدين، ص219، لأبكمنَّ: لأخرسنَّ.

المساواة والعدالة الاجتماعية، أما هو فكان يشعر بأن الكائنات والمخلوقات جميعاً ذات واحدة لا غير، وعلى العاقل، الحليم، العادل الاعتقاد – جازماً – أن العالم كله هو ذات نفسه، فِلمَ هذا التعالي والتجبّر على الآخرين؟! وفقاً لألوانهم وأعرافهم وأجناسهم والمحبة الإنسانية والمساواة أكبر وأشمل من كل تلك المفاهيم، الخاطئة، الظالمة، وليس من الحكمة والعقلانية جعل اللون حجاباً بين الناس، ومنقصة لحامله، ولم يطلب عنترة من قومه إلا اليسير والقليل من الحقوق، كلما في الأمر الاعتراف بإنسانيته، وكرامته، وحريته، وما كان اللون – يوماً – حكماً أو حاجزاً بين البشر، وقد أشغله التمييز اللوني كثيراً، وقضى حياته صراعاً نفسياً وظلماً قبلياً، ونضالاً مريرا لإثبات أحقيته في العيش، كريماً، حراً، طليقاً وهو الأكثر إحساساً بغيره، والأوسع تجربة من أولئك الذين اتخذوا العرق والنسب والجنس والحسب حججاً وبراهين على أفضليتهم وتقدمهم على غيرهم، إذ هم الأسياد الأحرار وغيرهم عبيد معدمون، لقد كان شعره المتنفّس الوحيد، المعبّر عن أحاسيسه ومشاعره ومأساته وأفكاره، وذكر ما يريد أن يوصله لعشاق التحرر وأرباب المروءة، وما له من رغبات لم تتحقق، وآمال ما زالت في ظهر الغيب، لكنه الصادق في انفعالاته، الناصح الأمين لقومه، المرشد، الشجاع لكل منصف وعادل، توسّد سيفه، ورافق رمحه، واعتمد على همته وعزيمته وصلابة إرادته لتخفيف الضغوط القاهرة عليه، وما أكثرها وتشعبها، مدافعاً عن كرامته، مؤكداً حسن صنعائه، وبلائه، لحماية عبس وما والاها، وهم على سوداويتهم وأفكارهم الضالة، ليقول:

دهتني صروفُ الدهر وانتشب الغدرُ
ومن ذا الذي في الناس يصفو له الدهرُ[1]
وكم طرقتني نكبةٌ بعد نكبةٍ
ففرّجتها عني وما مسنّي ضُرُّ[2]
ولولا سِناني والحسامُ وهمّتي
لما ذُكرتْ عبسٌ ولا نالها فخرُ[3]

ثم يستذكر مأساته اللونية مستخدماً حسن التعليل البلاغي الموقظ لذاكرة القبيلة ومن غفل عن مآثره ومناقبه النبيلة، وفضائله الكثيرة، وفروسيته، وسلوكه الإنساني، ونجدته لهم في كل معركة ومحفل، ليقول:

وإن كان لوني أسوداً فخصائلي
بياضٌ ومن كفيّ يستنزل القَطرُ[4]
محوت بذكري في الورى ذكرَ من مضى
وسدتُ فلا زيدٌ يقالُ ولا عمروُ[5]

وما قاله عنترة: منشور احتجاج ودعوة للتحرر والثورة على الأعراف والتقاليد المخالفة لحقوق الإنسان، وكرامته، وحريته، إذ يُعدّ عنترة من رواد التحرر الأوائل، وطليعة المناوين بإلغاء الرق والعبودية والتعصب للعرق والجنس واللون، والإنسان بأعماله الشريفة، وهذا ما ورد في ملحمة جلجامش البابلية[6] قبل أربعة آلاف عام، ونختم حياة عنترة المليئة بالحسرات والصدمات والانتصارات، وما عاناه من صراع نفسي وطغيان وظلم اجتماعي ولكن

(1) دهتني: أصابتني داهية من الدواهي. انتشب: اعتلق.
(2) طرقتني: أصابتني طارقة من طوارق الليل.
(3) ديوانه/ دار صادر، ص155.
(4) خصائلي: صفاتي الحميدة، ومن كفي يستنزل القطر: كناية عن الكرم والجود والسخاء وغيرها من الخصال الحميدة.
(5) ديوانه/ دار صادر، ص155.
(6) من أكمل وأطول الملاحم التي عرفتها الحضارات القديمة/ انظر ملحمة جلجامش، طه باقر، ص17–18.

رغم تلك المكابدات والنكبات، تسامى، وتعالى على آلامه وظلم مجتمعه، وانتصر حكيماً، شاعراً، فارساً، أخلاقاً، حرّاً، كما يشعر بذاته وقرارة نفسه، طليقاً كما خلقه الله سبحانه، ثم ترك أمره وحياته لمن بيده الخلق والأمر ليقول:

وها قد رحلتُ اليوم عنهم وأمرنـــا
إلى من له في خلقه النّهي والأمـرُ
سيذكرني قومي إذا الخيلُ أقبلتْ
وفي الليلةِ الطّلماءِ يُفتقدُ البدرُ
يعيبونَ لوني في السوادِ جهالةً
ولولا سوادُ الليلِ ما طلع الفجرُ[1]

لقد كان لرابطة الدم والعرق والجنس آثارها في قيام المجتمع القبلي المتطرف رأياً، المتعصب عرقاً، وسيطرة الحمية الجاهلية عليه، لهذا انشطر هذا الكيان المجتمعي إلى أسياد أحرار وعبيد، لا حول لهم ولا قوة إلا الخدمة والسمع والطاعة وتنفيذ الأوامر، والقبول بما يسد الرمق والبقاء على قيد الحياة، فأحدث ذلك السلوك شرخاً وصرعاً في البنية الاجتماعية، ومن ثم فهناك أفراد قد تميزوا عن غيرهم بما هم عليه من الجرأة والقوة تجبرهم على الإغارة والسلب والنهب ومن ثم القتل إذا اضطروا لذلك، وهذا ما يجر على القبيلة الشر جراء أعمال هؤلاء الخارجين على الأعراف والتقاليد فاتخذت القبيلة الخلع أسلوباً وقائياً ودفاعياً للحفاظ على سمعتها وحياة أفرادها العقلاء الملتزمين بالقيم السائدة، وإيقاف الثارات وتتبع أثر الدماء، وتبعات الديات الثقيلة، المرهقة لكاهل القبيلة اجتماعياً واقتصادياً، فإذا أرادت القبيلة خلع أحد أفرادها انتظرت الموسم المقام في الأسواق العربية المعروفة وأشهرها: سوق عكاظ وذي المجاز وغيرها[2]، لتعلن أمام القبائل البراءة التامة ممن تخلعه، وتهدر دمه، فلا طالب ولا مطلوب، ولا ديّة على من يقتله، وهكذا كان للخلع أثره في استتاب الأمن، والجنوح إلى السلم، والتخفيف من شدة القتال طلباً للثأر أو الديّة وتتبع القتلة، ولو إلى حين!!! وما دامت الفروق الفردية موجودة في كل مجتمع إنساني فلا بُدَّ من اختلاف الآراء والأفكار وأساليب الحياة، وظهور رجال لا يحتملون قسوة الأعراف والتقاليد السائدة، المقيّدة لحريتهم، إذ رفضوا استبداد مجموعة من سادات القبيلة وزعيمها ولهم كل الامتيازات والحقوق، والحل والعقد والمشورة، وهم المحرمون من كل شيء إلا ما يقيم الأود ويبقى الجسد واقفاً، لذلك تمرّدوا عليهم، ولم يلتزموا بأوامرهم التي تلغي إراداتهم ورغباتهم واختياراتهم، وفضلوا العزلة والتخلي عن الانتماء القبلي، إرادةً وطوعاً، وآثروا حياة الصعلكة التي تعني التحرر التام من ربقة القبيلة، والتخلص من الضغوط الاجتماعية والنفسية، لينطلقوا أحراراً في الصحراء الشاسعة، والهواء الطلق، موطناً لتحقيق آمالهم وتطلعاتهم واختيار أسلوب معيشتهم، فلا سادة ولا عبيد، فالكل سواء أمام العدل الاجتماعي، رضوا بذلك، رغم شظف العيش، وقلة الزاد والمؤونة، والبيئة المعادية، والظروف البيئية القاسية، وكثرة الضواري المفترسة، والأرض الملتهبة، فما هي إلا رمال وحصى ومساقط مياه وواحات تتقاتل القبائل عليها، ولكنها الحرية التي ألغت تلك الصعاب والمعوقات، إذ رفضوا فرض إرادة الغير عليهم، كرهاً وجبراً، ومن ثم إزالة التبعية ورواسب الماضي المضرّة، فما تلك إلا حواجز اجتماعية تضطهدهم وتقضي على تطلعاتهم في

(1) ديوانه/ دار صادر، ص155.
(2) وهذه هي الأسواق آنذاك: سوق دومة الجندل، المشقر، صحار، دبا، الشحر، عمان، صنعاء، الرابية، سوق عكاظ، ذي المجاز، ونطاة بخيبر، وحجر باليمامة، انظر: المحبر/ ابن حبيب: 1/ 263-268.

عيش كريم وحياة أكثر حرية وأفضل، فما قاموا به أشبه بثورة جذرية على أعراف وتقاليد لم تعد تتفق وأفكارهم وما يعتقدون به أنه الأحسن والأكمل، فأرادوا التحرر من كل العقد والضغوط القبلية عليهم، ومما يؤكد ذلك ما قاله الشنفرى والعزم على فراق القبيلة، ويدعوهم إلى الرحيل والكفّ عنه، فلم يعد يحتملهم، بل سيصحب غيرهم وهذا ما عبّر عنه بكل صدق وحرية رأي:

أقيموا بني أمي صدورَ مطيّكم

فإني إلى قومٍ سواكم لأميلُ[1]

فقد حُمّت الحاجاتُ والليل مقمرٌ

وشدّت لطيّاتٍ مطايا وأرحلُ[2]

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القلى متعزّلُ[3]

لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ

سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ[4]

ولم يجد بديلاً عن قومه غير الضباع والنمور وذئاب الفلاة، فقد استأنس بوجودها، واحتمى بأصواتها، واعتاد على سماعها، بعد أن أصبحت جزءاً من بيئته وحياته، فآثرها على قومه وقبيلته، الذين أذاقوه الويل وسقوه الحنظل مراراً، ولم يتركوا له فرصة للتعبير عما في نفسه من رغبات مكبوتة، وآمال مرفوضة، مازالت راكدة في الباطن وعالم اللاوعي، فآثر العزلة والانفراد والصعلكة، طلباً للحرية والانعتاق من أعراف لا ينتمي إليها، ولابد من تجاوزها لتحقيق ذاته، وبناء شخصيته، وما أراد منهم إلا الإنصاف والاعتراف به حراً، طليقاً، عزيزاً، كريماً!!، ولم ير في الضواري غير الوفاء وحفظ الأسرار وحسن الجوار، والإنسان مخلوق حر، وقيمته ومنزلته تتحدّد بالمواقف والأعمال التي يختارها لنفسه، فقال:

ولي دونكم أهلون سيدٌ عملّسٌ

وأرقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جيألُ[5]

همُ الأهلُ، لاستودعُ السّر ذائعُ

لديهم، ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ[6]

واعتقد أنّ من أسباب اتخاذ الصعلكة أسلوباً له، وتفضيله التشرد والغربة هو وقوعه عبداً بيد بني سلامان، وكان يحسب أنه واحد منهم، حتى طلب – يوماً – من قعسوس – ابنة الرجل الذي هو في عهدته وبيته – أن تساعده في غسل رأسه فقامت ولطمته على وجهه[7]، فثارت ثائرته، وصدم بذلك نفسياً، فسأل أباها أن يصدقه القول، فقال له: "أنت من الأواس بن الحجر[8]! فقال الشنفرى: "أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائةً بما استعبدتموني" وما كان قادراً أن يفي بوعده وهو في قبيلته لأن في ذلك تبعات وثأراً وديّات وستقوم بخلعه أمام القبائل والبراء منه لئلا تتحمل تبعة جرائره، لهذا وجد في التصعلك بغيته وخلاصه التام من كل جريرة واضطهاد قبيلته له، فقال فيما حدث له مع البنت:

ألا ليت شعري والتلهّف ضِلّة

بما ضربت كفّ الفتاة هجينها[9]

---

(1) المطي: ما تصلح للركوب من الأنعام وغيرها.

(2) حُمّت: تهيّأت. الطيّات: الحاجات. أرحل: جمع رحل، ما يوضع على البعير والراحلة كالسرج للفرس.

(3) منأى: مكان بعيد ومنعزل. القلى: البغض.

(4) ديوانه/ منشورات دار مكتبة الحياة، ص69.

(5) سيد عملّس: ذئب قوي. أرقط زهلول: نمر أملس. عرفاء جيأل: هي الضبع ذات العرف الكثيف الشعر.

(6) ديوانه/ مكتبة الحياة، ص70.

(7) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 179.

(8) هو من الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث، من اليمن، م.س: 21/ 179، معجم الشعراء الجاهليين/ د. عزيزة فوال، ص184-185.

(9) حجينها: لاعتقادها أنه ابن أمة لوجوده عبداً عند أهلها.

ولو علمت قعسوس أنسابَ والدي

ووالدها ظلّت تقاصرُ دونها[1]

أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصبا

وأمي آبنة الأحرار لو تعرفينها[2]

وما دامت الفروق الفردية موجودة في كل مجتمع إنساني بسبب النشأة وطبيعة البيئة وأسلوب التفكير واختلاف الطباع فلا بُدَّ من وجود أفراد متميزين لا يعترفون بأدوات القهر والتسلط الفوقي والحكم الفردي، وهذا ما كان عليه المجتمع القبلي في الجاهلية، وما على الفرد إلا الذوبان في بوتقته، ليفقد هويته، وتتلاشى شخصيته ليكون لبنة تضاف إلى كيان قبيلته، إذ "يجب الإيمان بالقيمة العليا للوجود الإنساني ممثلاً بالفرد"[3]، إذ الوجود الفردي أصل كل شيء في الحياة الإنسانية "وكل شيء يبدأ بالوجود الفردي"[4]، والذي يؤكد ذلك أن كل العلماء وقادة الثورات والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمخترعين والمكتشفين ورجال الفن والأدب والصناعة والتجارة والفقهاء والفلاسفة وغيرهم من المجتمعات الإنسانية كانوا أفراداً وليسوا جماعات، فالمجتمع البدوي، القبلي، قد يضحي بكثيرين من أجل المحافظة على كيانه الاجتماعي وسلامة الآخرين، وعلى الفرد أن يتخلى عن إرادته وطموحه وحريته إرضاءً لزعيم القبيلة ومن بيدهم الحل والعقد، ومادام الأفراد غير متساوين من حيث الآراء والأفكار والعواطف والعقول فلا بُدَّ من الخلاف والتنافر ليقع الصراع بين الفرد المتحرر والمجتمع المتعصب، المتطرف، ولنقل: بين اليسار واليمين!! والضمير الفردي والجماعي[5] يفعل فعله وله أثره الكبير على الأفراد والضغط عليهم إلى حد قسرهم على اتخاذ مواقف قد تختلف مع آراء الخاصة في مجتمعهم[6]، وهذا ما حدث مع الصعاليك فعلاً، وقد ذكرت المعاجم اللغوية كل ما له علاقة بالصعلكة وما فيها من معان وأحوال تدل على الفقر وضيق العيش وعسر اليد، إذ الصعلوك الذي ليس له مال يعينه، ولا زاد يقيم أوده، ولا من يعتمد عليه، وقد أشار حاتم الطائي إلى تلك الظاهرة الفريدة في الحياة العربية أيام الجاهلية، فقال:

عنينا زماناً بالتصعلك والغنى

فكلًّا سقاناه، بكأسيهما الدهرُ

فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ

غنانا، ولا أزري بأحسابنا الفقر[7]

وقد افتخر الصعاليك بهذه التسمية وعدّوها مفخرة لهم ولم يروها منقصة أو عيباً وعاراً، وما اتخذوها من أجل حريتهم وخلاصهم من الضغط الاجتماعي، ومن ثم الحفاظ على كرامتهم، وهذا ما أكده الشنذي بقول:

نحن الصعاليك الحماةُ البزّلُ[8]

إذا لقينا لا نُرى نُهلّلُ[9]

وكذلك قوله:

ألا هل أتى عنا سعادَ ودونها

مهامه بيدٍ تعتلى بالصعالكِ[10]

---

(1) لا تستطيع أن تطاول نسبنا بل تقصر عنه، لعزتنا وعلو شأننا.

(2) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 179.

(3) فلسفة سارتر/ عبد الفتاح الديري، ص6.

(4) م.س، ص7.

(5) موسوعة الفلسفة والفلاسفة/ د. عبد المنعم الحفني: 1/ 585.

(6) م.س: 1/ 585 بتصرف تام.

(7) لسان العرب مادة: صعلك، أساس البلاغة/ جار الله الزمخشري، ص355.

(8) البازل من الجمال: من طلع سنه بعمر ثماني سنوات لكنه يقصد أنه في عنفوان الشباب وقوته.

(9) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 161، وأراد بعجز البيت: أنهم يرحبون عند الغارة ألا يراهم أحد فهم يفرحون بذلك.

(10) مهامه بيد: أرد الغلوات المهلكة.

بأنّا صبحنا القومَ في حرّ دارهم

حِمامَ المنايا بالسيوف البواتكِ[1]

وليست الصعلكة ظاهرة اجتماعية في الجزيرة العربية حسب لكنها ذكرت في العصر البابلي الأول (2460 ق.م – 2081 ق.م) إذ كان النظام الاجتماعي طبقياً، فهنالك الأحرار النبلاء، والموالي، ثم طبقة العبيد ومن دونهم، وكانوا يطلقون على المولى اسم "شنكك" ومعناه: الصعلوك، الفقير، المسكين[2]، ولكنها لم تمتد وتتوسع كالتي حدثت عند العرب، ولكن الطبقية هي السبب في إحداث انشطار مضرّ في البنية الاجتماعية، فالصعلكة أشبه بعصيان مدني لكنه أقرب للثورة والتمرد على البغي المجتمعي والاستبداد الفردي لزعيم القبيلة، وسطوة السادة، الأحرار، وقهر من دونهم، لهذا يُعدّ الصعاليك رواداً لحركة التصحيحة ويقظة الوجدان الثائر ضد الظلم الاجتماعي والاضطهاد القبلي، فقد استماتوا في تحرير أنفسهم من كل القيود المعوقة لتحقيق بعض رغباتهم التي قبرت منذ زمن بعيد، وآن الأوان لإحيائها، وهم المتمردون، الفقراء لكنهم نجباء، نبلاء، وأصحاب نجدة ومروءة، وهذا ما ورد في أشعارهم، فقال السليك بن السلكة:

فلا يغررك صعلوك نؤومٌ

إذا أمسى يُعدّ من العيالِ

إذا أضحى تفقّد منكبيه

وأبصر لَحمه حذرَ الهزالِ

ولكن كلّ صعلوك ضروبٍ

بنصل السيف هاماتِ الرجالِ[3]

فهو صادق فيما يذكر ويقول، فقد نخر الجوع جسده المتعب، المنهوك على الدوام، وكان يتفحصه كل صباح، إذ لم يبق عليه شيء يذكر غي قطعة لحم، بائسة، يتيمة، تكاد أن تكون محض عظام لا غير، رغم ذلك فهو جريء، شجاع، ضروب لهامات الرجال عند الصدام والقتال خلال الغزو والإغارة أو الدفاع عن النفس، وأغار السليك – يوماً – على حي من بني شيبان ومعه رجلان يصحبانه في غارته، واستطاع بمفرده أن يأخذ أبل بعضهم ويطردها أمامه، فاعتقد الصاحبان أنه قد خانهما إذ تفرّد بالغنيمة، وقد ساء ظنهما به وكذلك تخوفاً عليه، لعله قُتل، حتى التحقا به وطردا الإبل معه، فقال شعراً يذكر ما جرى، وأنه ما قام بذلك، حتى أظلمت عيناه بسبب الجوع الذي أضرّه كثيراً حتى كاد يفقد بصره، وهذا ما ورد منه:

وعاشيةٍ راحت بطانا ذعرتُها

بسوط قتيلٍ وسطها يتسيّفُ[4]

وباتوا يظنون الظنون وصحبتي

إذا ما علوا نشزاً أهلّوا وأوجفوا[5]

وما نلتها حتى تصعلكتُ حقبةً

وكِدتُ لأسباب المنية أعرفُ[6]

وحتى رأيت الجوعَ بالصيّف ضرّني

إذا قمتُ تغشاني ظلالٌ فأسدفُ[7]

فما قاله مصداق لما كان يعانيه ويقاسيه في حياته، وإشارة على صبره وتحمّله المشاق للحصول على

(1) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 162، في حرّ دارهم: في عقر دارهم.

(2) تأريخ العرب قبل الإسلام/ جرجي زيدان، ص62.

(3) حماسة البحتري/ تحقيق: د. محمد نبيل طريفي: 1/ 343، والحماسة البصرية/ صدر الدين البصري: 1/ 109.

(4) العاشية: الإبل التي ترعى ليلًا. بطان: شبعى. ذعرتها: أخفتها. يتسيّف: يتقطع بالسيف.

(5) النشز: المرتفع من الأرض. أهلّوا: رجعوا. أوجفوا: أسرعوا.

(6) حقبة: مدة طويلة من الزمن. أعرف: يعرف ويصبر على الأسباب المميتة.

(7) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 20/ 378. تغشاني: تغطيني. أسدف: فتظلم عيناي.

لقمة تنعش جسده وتردّ ضرّ الجوع عنه، وليس هو الوحيد الذي شكا ذلك، فكلّ الصعاليك مشاركون له فيما ناله من الأوجاع والآلام، إذ الفقر كان شائعاً وعاماً بينهم، والجوع توأم لا يفارقه، واتحد التوأمان لمناوأة الصعاليك وحثّهم وإثارة نفوسهم وإجبارهم على الإغارة والغزو لكسب عيشهم، وسدّ رمقهم وإسكات بطونهم المحتجة عليهم على الدوام طالبة النجدة وإسعافها بقليل من طعام أو شراب، وهذا ما قاله حكيم الصعاليك وزعميهم العفيف عروة بن الورد العبسي:

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه
شكا الفقرَ أو لامَ الصديق فأكثرا
وصارَ على الأدنين كلّا وأوشكت
قلوبُ ذوي القربى له أن تنكّرا[1]
فَسرْ في بلاد الله والتمس الغنى
تعشْ ذا يسارٍ أو تموتَ فتُعذرا[2]
ولا ترضَ من عيش بدونٍ ولا تنم
وكيف ينامُ الليلَ من كان مُعسرا؟!![3]

لقد تميّز عروة عن غيره من الصعاليك عدم اقترافه جريرة يؤاخذ عليها، أو مظلمة تشينه، أو مثلبة تعيبه، فكان صاحب نخوة ونجدة، جريئاً، ومن أهل المروءة والفضل، يستميت في سبيل من أجار، حتى ساد أصحابه الذين تمردوا على التقاليد وبغي القبيلة وما عانوه من الضغط النفسي والاجتماعي لما هم عليه من الأنفة والإباء، وهكذا كان عروة، أبيّا، ماجداً، شرّفه العرب بأجلّ الصفات وأجمل الألقاب فسموه بمانع الضيم واشتهر بذلك بين القبائل، ولا يكون مانعاً للضيم إلا الماجد، الشجاع، الجريء، ومصداق ذلك قول زهير بن جناب الكلبي، سيد قومه وفارسهم وقائدهم:

لا يمنع الضيّمَ إلا ماجدٌ بطلٌ
إن الكريم كريمٌ حيثما كانا[4]

لأن الكرم توأم الأماجد، لهذا أجلّه كبراء القوم ورجال الحكمة وأرباب المكارم، ولم يعب ذلك عن الخلفاء أنفسهم، فحين سمع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ما قاله عروة:

إني امرؤ عافي إنائي شِركةٌ
وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ[5]
أتهزأ مني إن سمنتَ وأن ترى
بجسمي شحوبَ الحقّ والحقّ جاهدُ[6]
أقسم جسمي في جسوم كثيرةٍ[7]
وأحسو قراحَ الماء، والماءُ باردُ[8]

قال عبد الملك: "ما يسرني أن أحداً من العرب ممن ولدني، لم يلدني، إلّا عروة لقوله هذه الأبيات!!"[9].

(1) كلاّ: عالة وثقيلًا على غيره.
(2) اليسار: الترف والغنى.
(3) ديوانه/ تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، ص77، والحماسة البصرية/ صدر الدين البصري: 1/ 110.
(4) حماسة البحتري/ تحقيق: د. محمد نبيل طريفي: 1/ 68.
(5) العافي: طالب الفضل والرزق، لكنه أراد أنه من أصحاب الإيثار الذين يفضلون مشاركة الآخرين طعامه، أما اللئيم فهو الذي يستأثر بالطعام لنفسه وحده، دون أصحابه فيشبع وأصحابه جياع، أما عروة فليس كذلك.
(6) ما يراه من ضعف وهزال في عروة ليس من قلة زاد ولكن لكثرة مجاهداته وخدمته وتفضيل أصحابه على نفسه، فطلب الحق يجهده ويتعبه على الدوام.
(7) أن طعامه قسمة، ومشاركة مع غيره بالتساوي، ولا فرق بين واحد وآخر، لوجود المواساة والتآلف ورباط الإخوة.
(8) ديوانه/ تحقيق اسما أبو بكر محمد، ص61، وحماسة أبي تمام/ دار الكتب العلمية، ص340. وأراد بذلك البيت أنه يشرب الماء البارد في الشتاء لقلة اللبن أو عدمه.
(9) م.س، ص61.

وكل أشعاره تفصح عن روح إنسانية فاضلة، نرية، لصفاء قلبه، وسلامة نواياه، وصدق مقاصده، وله من جميل الأفعال وألطاف المحاسن ما يفتخر بها أرباب النجدة والمروءة وأهل الفضل والكرم، عُرف عروة بمواساته للآخرين، وتعاطفه الجم مع الأقربين والأبعدين، فهو لا يأكل إلا بمشاركة الأخوان والضيوف، وقد اتخذ الإيثار مكرمة وسفيرا بينه وبين الناس، رغم الخصاصة والفقر وعسر المسير، لهذا قال الخليفة عبد الملك: "من قال: أن حاتماً أسمح الناس قد ظلم عروة بن الورد"[1]، وقد عُرف بعض الصعاليك بالفتك والقسوة والشراسة كما كان عليه تأبطّ شرّا، فكان الحي، الميت، كان حيّاً بعدوه وإغارته، وميتاً بقلبه إذ لم يرأف بأحد أبداً[2]، ولم يعرف عن عروة العبسي إلا السماحة واللطف ورقة السجايا والخلق الكريم، ومما ما يؤيد ذلك، أن أحد الشباب وقف أمام قصر الخلافة وبابها طالباً من الأذن أن يستأذن له ويدخله على أمير المؤمنين معاوية وقال: قل له، ابن مانع الضيم في الباب، فاستأذن له معاوية بعد ما جرى له مع الشاب، فقال معاوية: "ويحك! لا يكون هذا إلا بن عروة بن الورد العبسي أو الحصين بن الحمام المرّي[3]، أدخله"، فلما دخل، قال له معاوية: "ابن من انت؟!" قال: "أنا ابن مانع الضيم الحصين بن الحمام"، فقال له: صدقت!! وأعطاه ما أراد ثم رفع المجلس[4] ورغم فقر عروة وحياة التشرد والاغتراب لكنه كان ذكي القلب، وذا فراسة لا تخطأ وأخلاق شريفة، فقال:

بُنيتُ على خلقِ الرجال بأعظُمٍ
خفافٍ تثنى تحتهنّ المفاصلُ
وقلب جلا عنه الشكوك فإن تشا
يخبرك ظهرَ الغيبِ ما أنتَ فاعلُ[5]

وهو قد تخلى – حتى من فراشه – لضيفه، لأنه الأكرم – عنده – من كل شيء، وهذا من الإيثار الإنساني المؤنس للنفس البشرية، وهذا ما قاله:

فراشي فراشُ الضيف والبيتُ بيتُه
ولم يلهني عنه غزال مقنّعُ
أحدّثه، إن الحديثَ من القِرى
وتعلمُ نفسي أنه سوف يهجعُ[6]

فلا تشغله عن ملاطفة ضيفه، غيداء جميلة، صفاء، لأن تجاذب الأحاديث من موجبات الكرم والضيافة، ومن ثمَّ التخلق بالعفاف الأدبي وآداب الطعام وحسن الضيافة، من سجايا الصعاليك التي لم تفارقهم رغم قسوة بيئتهم، وصعوبة الحصول على ما قيم أجسادهم، لكنها تهون أمام رواد النجدة وظلال الأسخياء ومواطن النخوة والمناقب الفاضلة، وهذا ما تجلى بقول الشاعر الصعلوك الشنفدى[7]:

وإن مُدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن
بأعجلهم، إذ أجشع القوم أعجلُ

(1) الأعلام/ خير الدين الزركلي: 5/ 18.
(2) المحبر/ ابن حبيب، ص192، والأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 169.
(3) كان الحصين سيد بني سهم بن مرة وشاعراً وفياً، مانعاً للضيم، م.س: 14/ 1، وجمهرة النسب/ هشام الكلبي، ص422.
(4) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 14/ 1 بتصرف تام.
(5) ديوانه/ تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، ص98، وحماسة البحتري/ تحقيق: د. محمد نبيل: 2/ 261.
(6) ديوانه/ تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، ص83.
(7) هو ثابت بن أوس الأزدي الملقب بالشنفدى لغلظ بشفته أو لحدة مزاجه، شاعر ومن أغربة العرب، ومن العدائين، اشتهر بقصيدته «لامية العرب» ذكر فيها تجاربه وصفاته وفروسيته، قتل نحو سنة 70 ق.م، معجم الشعراء الجاهليين/ د. عزيزة فوال، والأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 176-195، وديوانه/ دار مكتبة الحياة، ص19.

وما ذاك إلّا بسطةٌ عن تفضّلٍ
عليهم وكانَ الأفضلَ المتفضّلُ[1]

وقد وصفه زميله الفاتك تأبط شرّا ما لا يبتعد عن حقيقة الشنفدى وحياته، بل ما قاله يصدق على كل صعلوك أو مخلوع عانى الأسر والعبودية ونالت منه الضغوط النفسية ما نالت!! حتى تمرّد وانطلق حراً، متحرراً من شراك الاستعباد والتسلط القبلي، مختاراً الصعلكة أسلوب حياة جديدة منيرة، لما فيها من التشرد والاغتراب وقلة المؤن وكثرة الأعداء في بيئة تستغيث منها الرمال والحصى، مع ذلك فهي الأفضل ليستأنس بوحدته، وانفراده، وهذا ما ذكره تأبط شرّا واصفاً الشنفدى أو نفسه:

قليل التشكّي للملمّ يصيبه
كثير الهوى، شتى النوى والمسالك[2]
يبيت بمومـاةٍ ويُمسي بغيرها
وحيداً ويعروري ظهور المهالكِ[3]
يرى الوحشةَ الأنسَ الأنيسَ ويهتدي
بحيث اهتدت أمّ النجوم الشوابك[4]
ويسبقُ وفد الريح من حيث تنتحي
بمنخرقٍ من شدّةِ المُتدارِكِ[5]
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل
له كالئ من قلب شيمان فاتكُ[6]

هذه بعض صفات الصعاليك وليست كلها، فالصعلوك يصبر على المكاره ولا يشتكي لأحد، لا يستقر على حال لقلقه الدائم، يصبح هنا وغداً هناك لكثرة الترحال والتنقل والبحث عما يشبعه ويسد جوعه، مستأنس بانفراده وعزلته المختارة إرادة، المفروضة قبلياً وعرفاً، لا يهدأ له بال، ولكنه الأعرف بطرق النجوم وكيفية الاهتداء بها، يسابق الريح حيث تتجه بسياقين ألفت العدو والجريان، فإذا غلبه النعاس من شدّة الإعياء والتعب فسيبقى القلب يقظاً، حذراً، منتبهاً، ولم يكن الصعاليك وحدهم أصحاب غزو وغارات بل كان ذلك شائعاً بين العرب، طلباً للثأر، أو الديّة، أو الحصول على غنائم أعدائهم أو القتال من أجل الحصول على مصادر المياه ومواطن الكلأ، لهذا كان الجميع على قلق دائم، ولا يستتب الأمن إلا بوجود السلاح والفرسان أهل النجدة، والعقول الرائدة، الذكية، والقلوب المتوقدة حماساً وأنفة، إذ لم يغب قول النابغة الذبياني من ذاكرة أي عربي حين قال كلمة بالغة، وإشارة إلى ما للقوة من أثر في حماية الحمى وصد المغيرين:

تعدو الكلابُ على من لا كلابَ له
وتحتمي مربضَ المستأسدِ الحامي[7]

لهذا قال الصعلوك الجريء الشاعر عمرو بن برّاق:

متى تجمع القلبَ الذكيَّ وصارماً
وأنفاً حميّاً تجتنبك المظالمُ[8]
وكنتُ إذا قومٌ غزوني غزوتهم
فهل أنا في ذا لهمدانَ ظالمُ[9]

قال ذلك حين أغار على إبله وخيله رجل من همدان اسمه حريم، فساقها وأبعد فيها، لكن استطاع عمرو من اللحاق بها واسترجاعها جميعاً،

(1) م.س، ص70.
(2) الملمّ: المصاب. النوى: البعد والفراق.
(3) المومـاة: المغازة الشاسعة. يعروري: يركب الفرس عريانا.
(4) أم النجوم: الثريا لكثرة ما فيها من النجوم.
(5) وفد الريح: شدة الريح. تنتحي: تتجه. بمنخرق: رجل سريع، متلاصق الساقين من شدة العدو.
(6) ديوانه/ دار مكتبة الحياة، ص50، وحماسة أبي تمام/ دار الكتب العلمية، ص1. الكري: النعاس. كالئ: حافظ. شيمان: يقظ وحذر.
(7) تحتمي: تبتعد عن. الحامي: الحارس، المانع.
(8) الصارم: السيف القاطع.
(9) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 174.

فطلب حريم أن يعيد إليه خواص إبله وخيله، فرفض عمرو وأبى[1] ذلك فقال:

كذبتم وبيتِ الله لا تأخذونها
مراغمةً مادام للسيف قائمُ[2]
ولا صلحَ حتى تعثرَ الخيلُ بالقنا
وتضرب بالبيض الرقاق الجماجمُ[3]

أما الشنفرى فلم يجد من يكافأه من أقاربه وأولي رحمة على إحسانه وجميل صنيعه معهم بالحسنى، لأنهم طبعوا على نكران الجميل، وجعلوا ما استحسن من فعله ظهريا، فلابد أن يتأثر نفسياً، وتطرقه الهموم والحسرات سجالا، لهذا استبدلهم من هم أقدر منه، وأكثرهم منفعةً ورفقةً ووفاءً وصدقاً عند الملمات ونزول النوائب، هم ثلاثة لا غير: قلب جريء، شجاع، وسيف صقيل مجرّد، وقوس طويلة، تطال أي عدو وغاز فترديه قتيلا، ولا فائدة من قُرُب أقاربه، إذ ليس معهم ما يتعلل به من الأحاديث المؤنسة والمسامرة اللطيفة، وما يتلهى به من غرائب الكلام، والأمثال السائرة، والحكم البليغة، والأشعار البديعة أو من طعام وشراب بهما ليلغيا الجوع ويأتيا بالراحة والشبع المريح، وشعره صدى لتجاربه هذه:

وإني كفاني فقدُ من ليس جازياً
بحسنى ولا في قربه متعلّلُ
ثلاثة أصحاب، فؤاد مشيّع
وأبيضُ إصليتٍ وصفراء عيطلُ[4]

لقد كان الجوع هو الأكثر عداءً وأثراً في نفوس الصعاليك ولطالما عانوا وتحملوا مرارته وقسوته، وما غزوا وأغاروا إلا للحصول على ما يشبعهم ويكفيهم المؤونة وينقذهم من الهلاك المحقق، فهم الأحياء، الموتى وإن ساروا وإن قفلوا، ولكن الصبر كان مشيّعهم فاستنجدوا به حتى أصبح طبيعةً وسجيةً مركوزةً في طباعهم، فما أقسى غربتهم ومعاشهم في شعاب مميتة، ووديان مخيفة، وصحراء إن قلّ فيها الصحاب ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، صدق الصعاليك في انفعالاتهم وأشعارهم وكان صدى لتجاربهم المريرة، حتى التوت أجسادهم وجفّت جلودهم حتى استفوا التراب إذ لم يجدوا البديل، وهذا ما أكده الشنفرى بقوله:

أُديم مطالَ الجوع حتى أُميتهُ
وأضرب عنه الذكر صفحاً وأذْهَلُ[5]
وأستفّ تُرب الأرض كيلا يرى له
عليّ من الطّول امرؤٌ متطوّلُ[6]
ولو اجتناب الذّامَ لم يُلفَ مشربٌ
يُعاشُ به إلا لدي ومأكلُ
ولكن نفساً مرّةً لا تقيم بي
على الضّيم إلا ريثما أتحوّلُ[7]

ويعترف الشنفرى بكثرة جفائه وكثرة المطالبين بدمه حتى ألف الهموم ورافق الأحزان بسبب ذلك فأصبحت تعاوده عودة حمى الربع لمريضها، رواحاً ومجيئاً حتى ترهقه وتهزله، وها نحن أمام صورة حيّة من صور حياة الصعاليك نقلها لنا الشنفري بقوله:

طريدُ جنايات تياسرنَ لحمَه
عقيدُته لأيها حُمُّ أوّلُ[8]

(1) م.س: 21/ 175.
(2) مراغمة: بالقوة ورغم أنفي.
(3) م.س: 21/ 174.
(4) مشيّع: شجاع وقوي. إصليت: سيف صقيل، مجرّد، صفراء. عيطل: قوس طويلة.
(5) مطال: أماطله. أضرب عنه الذكر صفحاً: أعرض عنه ولا أذكره. أذهل: أنسى كل شيء حولي.
(6) استفّ: التهم. الطوّل: الفضل. المتطوّل: المتفضّل.
(7) النفس المرّة: الحرة، الأبية التي لا تقيم على ضيم أبدا.
(8) الطريد: المبعد المطرود، يتاسرن: تقاسمن لحمه. عقيرته: نفسه أو جثته. حُمّ: قُدّر له.

فإذا نام هو، فعيون أعدائه يقظى تطالب بالثأر منه، ولكن لا يدري بأي غزوة أو جريرة يُتل وتذهب روحه جفاءً؟!:

تنامُ إذا ما نامَ يقظى عيونُها
حثاثاً إلى مكروهة تتغلّلُ[1]
وألف هموم ما تزالُ تعوده
عياداً كحمى الربع أو هي أثقلُ[2]
إذا وردت أصدرتها ثم إنها
تئوبُ فتأتي من تُحيّتٍ ومن علُ[3]

وكان الأرق حليفهم، لأنهم كانوا في صراع دائم مع بيئة لا ترحم ضعيفاً ولا تنهض عليلاً، وقبائل لا تهدأ، في حل وترحال، وما أن تأمن وتستقر حتى تنفرّ خفافا وثقالا، إمّا صغيرةً وإمّا مدافعة، وما في تلك الأحوال المتقلبة والظروف القاسية من منغصات، وهذا ما ذكره عمرو بن برّاق وبأن من طلب المال فربما ينال غنىً أو يُقطّع سيوفاً ويكون أثراً بعد حين، فقال:

تقول سُليمى لا تعرضنّ لتلفةٍ
وليلك عن ليلِ الصعاليك نائمُ
وكيف ينامُ الليلَ من جُلّ ماله
حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ
ألم تعلمي أن الصعاليكَ نومُهم
قليلٌ، إذا نام الدّثور المسالمُ
تحالف أقوامٌ عليّ ليسمنوا
وجرّوا عليّ الحرب إذ أنا سالمُ
ومن يطلبِ المالَ المسنّع بالقنا
يَعشْ ذا غنىً أو تخترمه المخارمُ[4]

ولا مال للصعلوك غير سيفه القاطع الذي يرافقه ليلاً ونهارا، فنومه قليل، وليله طويل، وإن جنح للسلم شهروا عليه سيوفهم، وإن سمنوا على حسابه أجاعوه، يتحالفون ضد من يرفض الحرب وينازلونه طوعاً وكرهاً، ولكن من يطلب المال الحسن بالرماح يعش مترفاً، غنياً، أو تستأصله وتهلكه المهالك، هذا هو قانون الصحراء وما تفرضه البيئة على الإنسان من أحوال وظروف لا يحتملها إلا بالصبر وتفتيت الجسد، فإما العزّ موتاً، أو الكرامة حياة، وهذا ما أراده الصعاليك واستماتوا في سبيل تحقيقه، فآثروا الجوع حفظاً لمآثرهم ومكارمهم، واستأنسوا بالوحش والمهامه، والصعلوك يثأر ممن ينازعه حياته أو يمنعه طعامه، أو يستضعفه وينال من سمعته، ولا همَّ له إلّا بلقاء فارس ملثم شجاع، لإثبات أنه جدير بلقائه، وبأنه لا يطال الضعفاء ومن هم دونه قوةً وجرأة، إذ ليس من شيم النفوس الأبية، ومروءة الكرام فعلُ ذلك، علماً أن الصعلوك لا ينام إلا قليلا، ولا يدخّر زاداً إلا تعلّة يتعلل بها بين حين وآخر، رغم التصاق المعي لخلوّها من الطعام وبروز أضلاعه عدماً وجوعاً، فهو قاطع المفاوز، سيّار الفلوات ولا حاجة لمن يشجّعه لاختراقها لأنها مخيفة، وهو اعتاد على قطعها لسعة معرفته بشعابها ووديانها وأغوارها حتى ألف الضواري وألفنه، ولكن من يحاول قتله فلا يرى إلا أضلعاً بارزةً بسبب الضرّ الذي أصابه من الجوع والذي يراود ويعاوده مراراً، وقد ذكر الأحوال تأبط شرا حين خطب امرأة ونصحوها ألا تقبل به، لأنه القتيل الأول، آجلاً أم عاجلاً:

قليلُ غرار النّوم أكبر همّه
دمُ الثأر يلقى كميّا مقنّعا[5]

(1) حثاثا: مسرعة. مكروهة: كل ما يكره.
(2) حمى الربع: التي تعاود المريض كل أربعة أيام.
(3) أصدرتها: رددتها. تئوب: ترجع. من تحيّت: من تحت.
(4) المسنّع: المال الحسن. تخترمه: تستأصله وتهلكه. المخارم: المهالك، ديوانه/ دار مكتبة الحياة، ص81.
(5) غرار النوم: النوم الخفيف. كميّا، مقنّعا: شجاعاً، ملثّما.

قليلُ ادّخار الزّاد إلا تعلةً
وقد نشرَ الشرسوفُ والتصق المعِى[1]
تناضله، كلّ يشجّع نفَسه
وما طبّه في طرقه أن يشجّعا[2]
يبيتُ بمغنى الوحش حتى ألفنه
ويصبحَ لا يحمي لها الدهر مرتعا
وإني – ولا عِلمٌ – لأعلم أنني
سألقى سنانَ الموت يرشقُ أضلعا[3]

لقد كان الجوع هو الأكثر عداءً، والأعمق أثراً في نفوس الصعاليك، لهذا ذكروه كثيراً في أشعارهم، وما غزوا وما أغاروا إلا للحصول على ما يشبعهم وينقذهم من مجاعة واقعة، فهم الأحياء الموتى إن ساروا وإن قفلوا، ولكن الصبر كان مشيّعهم فاستنجدوا به حتى صار طبيعة مركوزةً فيهم، وسجية افتخروا بها، فما أقسى حياتهم وأكثر كربهم، وتغرّبهم وانفرادهم في شعابٍ ومغاور مميتة، ووديان مخيفة، مخوفة، وصحراء تذيب الجسد حرارة، وترهق النفس قلقاً، وتتعب القلب همّا، وقد صدقوا في أشعارهم وانفعالاتهم وتجاربهم المريرة مع الحياة أو الموت، فالأمر سيان عندهم، قال الشنفرى:

أمشي على الأرض التي لن تضيرني
لأكسب مالاً أو ألاقي حمّتي[4]
إذا ما أتتني حمّتي لم أبالها
ولم تُذرِ خالاتي الدموع وعمتي[5]
وهنّئ بي قومٌ وما إن هنأتهم
وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي[6]
وأمّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتَهم
إذا اطعَمتهم أو تَحتْ وأقّلت[7]
تخاف علينا الجوعَ إن هي أكثرت
ونحنُ جياعٌ، أيّ ألتٍ تألّتِ[8]
وإني لحلوٌ إن أُريدتْ حلاوتي
ومرّ إذا النفسُ الصّدوف استمّرتِ[9]

فالشنفرى يقطع الصحراء بحثاً عما يحبه، فإما الحياة وإما الممات، ولا يضيره الرحيل والموت آجلاً أو عاجلاً فالأمر سيان، فليس هنالك من يرثي له أو يبكي عليه وهو المنعزل، المغترب الذي آنس الضواري وحيدا، ولكن هنالك من يساعده ويضيفه إذ وجد امرأة ذا عيال ليست من عشيرته وقبيلته، تشاركه الطعام مع أولادها، رغم قلة الزاد وبعد المشقة، فللكرماء دورهم المؤثر الإنساني في إغاثة وتخفيف آلام من اشتد عليه الجوع وأحاط به الفقر من كل جانب وأرهقته الأيام تباعا، لهذا كانت سجية الكرم من أجلّ السجايا عند العرب، لأنها تعني النجدة والإغاثة والحياة، وما ذكره الشنفرى صورة تفصح عن مأساة حقيقية عاشها تجربة، وحفظها ألماً، ولوعةً ومشهدا، رسخت في ذاكرته موقفاً شريفاً، وكرماً لا مثيل له، من امرأة ذات مترية، وأطفال جياع، وزاد لا يكفي الجميع، مع ذلك فكانت المواساة والمشاركة هي الحل الأمثل

(1) الشرسوف: الطرف اللين من الضلع الذي يلي البطن.
(2) ليس له حاجة إلى من يشجعه على سلوك الطرق المخيفة، لأنه الأعرف والأكثر جرأة لقطعها.
(3) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 145-146.
(4) حمّتي: منيتي وموتي.
(5) ليس هنالك من يبكي عليَّ لبعد الشقة والتفرد وحيداً صعلوكا.
(6) هنأ: أعطى. بمنبتي: من أصلي وعشيرتي.
(7) أو تحت: أكلّت الطعام.
(8) أي ألت تألتِ: أي نقصان كبير وصلت إليه؟!.
(9) الأغاني/ أبو الفرج الأصفهاني: 21/ 187-188، صرف: اعرض، وأراد: أنه نافع لمن نفعه، مضر لمن أعرض عنه وآذاه. استمرات: لاقت أوقاتاً وأحوالاً مريرة، مؤلمة.

لبقائهم أحياء، ولو إلى حين!!!.

وذكر عروة بن الورد ما كان عليه من سوء الحال وشظف العيش، والتواء اليمين، فلا غرابة أن يجازف بحياته لينال ما يحيي به عياله ونفسه، ولا يُلام إذا فشل أو نجح في مسعاه، فهو معذور إذ تكفيه المحاولة، فقال:

ومن يك مثلي ذا عيالٍ ومقترا
من الحال يَطرحْ نفسَه أيّ مطرحِ[1]
ليبلغ عذراً أو ينالَ رغيبةً
ومبلغُ نفسٌ عندُها مثلُ منجحِ[2]

وكانت الغاية من الغارات هو السطو على الأغنياء، البخلاء، لإنهاض الجياع وإغاثة الفقراء، الضعفاء من الناس بما يكسبونه ويحصلون عليه من الغنائم، وقد أنف الصعاليك ورفضوا الصعلوك الكسول الذي آثر خدمة النساء، وتناول ما خسّ من الطعام والعطايا المذلّة، وقد ذكر الشعراء أحوال أولئك المسيئين إلى سمعة الصعاليك، أرباب النجدة والمقام العالي في مدارج الكرم ومقامات أرباب المروءة وقيم الفروسية، فقال عروة بن الورد:

لحا اللهُ صعلوكاً إذا جنّ ليلهُ
مصافي المشاش إلفاً كلَّ مجزرِ[3]
يعُدّ الغنى من نفسه كل ليلةٍ
أصابَ قِراها من صديقٍ ميسّرِ[4]
ينامُ عشاءً ثم يصبح ناعساً
يحثّ الحصى عن جنبهِ المتعفرِ[5]
يعين نساء الحيّ ما يستعينه
ويُمسي طليحاً كالبعير المحسّرِ[6]

ويثني على الصعلوك الجريء، الأبي، الذي يغزو مطلّاً، على أعدائه ويلتمسون الفوز عليه باستخدام قداح الميسر ويعتمدون على ما يخرجونه من القداح، فمن السهام ما يتفاءلُ بها، وأخرى يتشائمون منها، ولكن لا فائدة مما يقومون به ولاحظ لهم مع الصعاليك الفرسان، الذين يقعون على الموت قبل وقوعه، فإن قتلوا ففي مآثرهم الغنى، وإن بقوا فهم الأجدر بالحياة والبقاء، لأنهم المسعفون، المغيثون لغيرهم على الدوام، ويكفيهم ذلك سمعةً ومفخرة، وهذا ما ورد في شعره:

ولكن صعلوكاً صحيفةُ وجههِ
كضوءِ شهابِ القابس المتنوّرِ[7]
مطّلاً على أعدائه يزجرونه
بساحتهم، زجر المنيحِ المشهّرِ[8]
إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه
تشوّف أهل الغائبِ المتنظَّرِ
فذلك إن يلقَ المنيةَ يلقها
حميداً وإن يستغن يوماً فأجدرِ[9]

فالأعداء يتوجّسون خيفةً رجوعه إليهم مرة أخرى، فيشرئبوا أعناقهم ويمدوها ليروه من بعيد

(1) مقترا: متلاً.
(2) ديوانه/ تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، ص51-52، وحماسة أبي تمام/ دار الكتب العلمية، ص85. رغيبته: رغبته ومطلبه. منجح: ناجح.
(3) لحا: لعن. جن ليله: جاء بظلمته. مصافي: مؤثر للأكل. المشاش: رأس العظم اللين. إلفا: ملازما، المجزر: الموضع الذي تجزر فيه الإبل.
(4) الشعرى: الضيافة والكرم. ميسّر: ذا مال وغنى عريض.
(5) يحثّ الحصى: يتلهى بالحصى لخموله وكسله، المتعفر: المغطى بالتراب.
(6) م.س، ص68، الطليح: المتعب، الضعيف. المحسّر: المتلهف ذو الحسرات.
(7) القابس: الذي يطلب ويؤخذ شعلة من معظم النار.
(8) مطلا: مشرفا. يزجرونه: يحركون قداح الميسر لمعرفة فوزهم أو خسارتهم في المعركة. المنيح: من سهام الميسر الذي لا نصيب له. المشهّر: الواضح، الظاهر.
(9) م.س، ص69.

لئلا يرجع إليهم، فهم على وجل وحذر منه على الدوام، وذلك دليل على جرأته وإقدامه وفروسيته، فشتان ما بين صعلوك خامل، جبان، بليد، وصعلوك فارس، ذكي، نشيط، ومما يؤكد شيوع الصعلكة ظاهرة اجتماعية أصيلة مؤثرة في الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قول حاتم الطائي، وقد أثنى مادحاً الصعلوك المقدام، الجريء، الأبي، وهاجياً من كان خاملاً، قانعاً باليسير من الطعام واللباس، فلا مكان له في ديوان الرجال، ورفاق السلاح والفروسية:

ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنىً
إن هو لم يركب من الأمر معظما
لحا الله صعلوكاً مُناهُ وهمّهُ
من العيشِ أن يلقى لبوساً ومطعما
ولله صعلوكٌ يساورُ همّه
ويُمضي على الأحداث والدهر مقدما[1]

وقد أشغلت ظاهرة التصعلك المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلم النفس وكل من له علاقة بالمجتمعات الإنسانية ومقومات تنميتها وتطورها أو أسباب تخلفها وتدهورها، ليتخذوا الإجراءات المستقبلية الكفيلة بإعادة البنية الاجتماعية إلى سابق عهدها، ومن ثم معرفة الضغوط الاجتماعية والنفسية على الإنسان المضطهد، المهمّش وآثارها على المجتمع القبلي كله، وكثرت الدراسات الاجتماعية والنفسية والانتروبولوجية وذلك لاستيعاب جميع المؤثرات المادية والمعنوية والبيئوية ومجمل الأعراف والتقاليد التي سادت في العصر الجاهلي، وأثارت الصراع بين السادة والعبيد، بين السلطة والشعب، بين الأغنياء والبائسين[2]، بين المتطرفين والمهمّشين، وقل: بين اليسار واليمين!!.

ويبقى الباب مشرعاً لكل باحث مجتهد، مخلص، لإتمام ما بدأت به، لأنني ما استشهدت إلا بالقليل من الأشعار والأحوال والحوادث لكثرتها وتشعبّها وسعة مساحتها، ولكن القليل يدل على الكثير، ولا تسمح خطة البحث والتعليمات الملزمة للباحث بالإطالة والإسهاب وللوقت أثره لاتخاذ الإيجاز أسلوباً مقنعاً، وهذا ما حاولت القيام به قدر الاستطاعة والإمكان، وما الكمال إلا لله وحده سبحانه، والله الموفق.

خلاصة البحث:

لقد أشغلت الحربان: حرب البسوس وداحس والغبراء والخلع القبلي، والعبودية، والتمييز العرقي، وظاهرة التصعلك المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلم النفس حقبة من الزمن، فأشبعوها تعقيباً وبحثاً ودراسةً وتفسيرا لمعرفة الأسباب المثيرة، المؤثرة في حركة التأريخ، تأريخ الحياة العربية في العصر الجاهلي، وذلك لمعرفة الماضي لتطوير الحاضر وضمان وحماية المستقبل، من تشظي الأمة وانشطار البنية الاجتماعية، كما كانت: أسياداً وعبيدا، سعداء ومقهورون، أغنياء وفقراء، فلم أجد ظهيراً للتأريخ، ومعيناً ثرّاً، وشاهداً حيّاً على ما ذكرناه غير الشعر، إذ هو ديوان العرب وسجل حياتهم كلها، من عادات وتقاليد وأعراف ومعتقدات ومآثر ومكارم أخلاق، وما هم عليه من الغارات والغزو والثارات وتتبع الدم، وأخذ الديّات، وبعد الاطلاع على أشعار من عاشوا تلك التجارب المريرة، والظروف الصعبة، والأحوال المتغيرة واكتووا بلهيبها، علمت بما لا يقبل الشك أن المحرّك الأول، والمؤثر الرئيس هو الضغوط الاجتماعية والنفسية على المجتمع القبلي عامة وعلى العبيد والخلعاء والصعاليك

(1) م.س، ص37. يساور: يراود ويراجع ويعود.
(2) بائس وجمعه بائسون ولا يجوز أن نقول: بؤساء، لأنها جمع: بئيس وهو الشديد القوي.

خاصة، ولولاها لألغيت العبودية، والتعصب للعرق والجنس واللون، وما كان للخلع سبب يذكر، وما ظهرت الصعلكة ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل الاجتماعي والنفسي والعلمي حتى الآن، ومن النتائج المتواضعة التي وصلت إليها من خلال البحث هي:-

1. كانت القبيلة هي الوطن الأم لكل فرد من أفرادها، وعلى كل فرد السمع والطاعة لزعيم القبيلة ووجهاء القوم، والالتزام بأعرافها وتقاليدها ومعتقداتها ليكون مقبولاً وإلا سيكون غريباً عنها.
2. لا يجوز الاعتراض والاحتجاج على رجال الحل والمعقد وزعيم القبيلة عندما يخص الأمر بإعلان الحرب أو شن الغارات أو الأخذ بالثأر لأن ذلك راجع لسادة القوم وحدهم فقط.
3. على كل فرد التمسك بكل ما تعتقد به القبيلة سواء أكان مؤمناً بها أو مخالفاً، فإن قبلها قُبل، وإن خالفها رُفض.
4. القبيلة تخلع وتتبرأ أمام القبائل – عند انعقاد المواسم في سوق عكاظ أو ذي المجنّة أو الأسواق الأخرى – من كل من كثرت جرائره، وساءت سمعته، لئلا تتحمل تبعات جرائمه، من ديّات وثارات، ويكون دم المخلوع هدراً، ولا ديّة على القاتل، للحفاظ على سمعتها بين القبائل وإبعاد المسيئين إليها.
5. كان للعبودية والظلم الاجتماعي والتعصب القبلي آثارها المضرّة، السيئة للبنية الاجتماعية وحقوق الإنسان.
6. كان للضغوط الاجتماعية والنفسية آثارها المدمرة وسبباً في تمرّد الكثير من المضطهدين، الذين فقدوا حرياتهم، ولم يحققوا رغباتهم، وهذا حال الأغلبية التي عانت من التسلط الفردي، أما من أساء واعتدى وخالف الأعراف فيتم خلعه وطرده والتبرؤ منه أمام القبائل للتخلص من تبعات الديّات الثقيلة والثأر وطرد الذين لا يحق لهم البقاء في الكيان القبلي لضررهم الكبير عليه.
7. من أكثر الظواهر الاجتماعية إثارة للفكر العربي والإسلامي ظاهرة الصعاليك، وأسباب ظهور الصعلكة، ومن هم الصعاليك؟! ولماذا ثاروا وتشردوا وفضلوا العزلة والفقر على المجتمع القبلي؟ وقد آثروا الوحدة والزهد والجوع اختياراً على الاستقرار الأمني والحياة الاجتماعية، إن السبب الرئيس هو التحرر التام من قيود القبيلة التي لا تتفق ورغباتهم وتطلعاتهم، فالحرية مع الفقر أكثر عزة وأفضل كرامة من البغي والظلم الاجتماعي والتفرد بالسلطة.
8. لولا الضغوط الاجتماعية والنفسية لما حصلنا على هذه الثروة الفنية، الشعرية، البديعة، المؤثرة في الوجدان، إنها لم تكن مجرد أشعار تلقى، بل هي القلوب الجريحة، والأماني الضائعة، والأجساد المتعبة، والنفوس القلقة، الحائرة، هي الحياة المعذبة بكل مفاصلها، هي البديل لأنفاسهم وعذاباتهم، المعبرة عن أشجانهم وتجاربهم، إنها لم تكن قصائد شعرية حسب ولكنها أرواح تتكلم، فكانت أشعار الصعاليك والخلعاء والعدائيين والفتّاك منهم سجلاً حافلاً لمعاناة الإنسان، المطالب بحريته، الرافض لعبودية التسلط الفردي، والاضطهاد والقبلي، فمن أراد معرفة آثار التمييز العنصري فعليه بأشعار عنترة العبسي، رائد حركة التحرر، المناهض لعبودية الإنسان واسترقاقه، سلعة تباع وتشترى، ومن يريد القدوة الثائر، والمثال الأخلاقي، وطليعة الاشتراكيين الأوائل فعليه بعروة بن الورد العبسي، ومن

يبحث عن صعلوك، متمرد، عنيد، صادق في انفعالاته وشعره فعليه بشاعر لامية العرب: الشنفدى!! ومن يحب الرياضة والعدائيين فأمامه الشاعر، العدّاء السليك بن السلكة، ومن يود رؤية أكثر الصعاليك عدواً وفتكا فلينظر إلى تأبط شرّا ويقرأ ما قال من شعر وما جرى عند الإغارة والغزو وما عاناه من جوع قاتل، وتشرد لا مثيل له.

هذا ما توصلت إليه من نتائج متواضعة وأرجو أن تكون مرضية، مقبولة، من لدن العلماء العاملين، والباحثين، المخلصين، ويبقى الباب مفتوحاً لمن أراد الاستزادة العلمية والتعقيب الجاد، ولكل باحث أسلوبه الخاص، ونهجه العلمي للوصول إلى الحقائق المراد معرفتها وكشفها وتقديمها هدية عارف، وباحث مثابر، وما الكمال إلا لله وحده، والله الموفق.

المصادر

- القرآن الكريم.
- أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار صادر – بيروت، 1979م.
- أصول الفلسفة الماركسية، جورج بولتيز، جي بيس، موريس كافين، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية – صيدا، بيروت.
- الجهل المقدس، إليفييه روا، ترجمة صالح الأشمر، دار الساعي – بيروت، ط2، 2013م.
- الحماسة البصرية، صدر الدين البصري، تحقيق دار الكتب – بيروت، ط3، 1983م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، مطبعة كوستا توماس وشركاه، 1955م، ب-د.
- أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1972م.
- الكامل في التأريخ، ابن الأثير، دار المعرفة – بيروت، ط2، 2007م.
- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق – بيروت، ط21، 1960م.
- الموسوعة السياسية، تحرير وإشراف د. عبد الوهاب الكيالي – كامل زهيري، المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت، ط1، 1973م.
- اللؤلؤ والمرجان، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث – القاهرة، 2007م.
- تأريخ العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان، مكتبة الحياة – بيروت، ب-د.
- تأريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم – بيروت، ط3، ب-د.
- تحرير التحبير، ابن أبي أصيبعة المصري، د. حفني محمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1995م.
- جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1983م.

جمهرة النسب، هشام بن محمد الكلبي، تحقيق: د. ناصر حسن، عالم الكتب – مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط2، 1981م.

- جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1986م.
- جمهورية أفلاطون، ترجمة حنّا خبّاز، دار الأندلس – بيروت، ب–د.
- حماسة أبي تمام، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1988م.
- حماسة البحتري، تحقيق: د. محمد نبيل، دار صادر – بيروت، ط2، 2009م.
- ديوان عنترة بن شداد العبسي ومعلقته، الأستاذ خليل شرف الدين، دار مكتبة الهلال – بيروت، 2008م.
- ديوان عنترة بن شداد العبسي، دار صادر – بيروت، ب–د.
- ديوان عروة بن الورد العبسي، تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، – بيروت، ط2، 2009م.
- رسالة في اللاهوت والسياسة، سبينوزا، ترجمة حسن حقي، ومراجعة د. فؤاد زكريا، المطبعة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1951م.
- سرح العيون، ابن نباتة المصري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – صيدا، بيروت، 1986م.
- شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، دار المسيرة – بيروت، ط2، 1979م.
- شرح المعلقات العشر، أبو عبدالله الزوزني، دار مكتبة الحياة – بيروت، 1989م.
- شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، المكتبة العربية – حلب، ط، 1969م.
- صحيح مسلم، شرح شرف الدين النووي، المطبعة العربية بالأزهر – القاهرة، ط1، 1930م.
- علم الاجتماع المعاصر، د. نبيل سليمان، مطابع الثورة العربية – ليبيا، طرابلس، 2001م.
- الفكر الفلسفي الهندي، د. سرفيالي رادا كرشنا، د. شالرزمور، ترجمة ندرة اليازجي، دار اليقظة العربية، 1967م.
- فلسفة سارتر، عبد الفتاح الديري، مكتبة الحياة – بيروت، ب–د.
- كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: عدة أساتذة، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1973م.
- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، المصري، دار بيروت – دار صادر، بيروت، 1968م.
- لامية العرب، دار مكتبة الحياة – بيروت، 1985م.
- معجم الشعراء الجاهليين، د. عزيزة فوال، دار صادر– بيروت، ط1، 1988م.
- ملحمة جلجامش، طه باقر، مطابع الجمهورية – بغداد، 1971م.
- موسوعة الفلسفة والفلاسفة، د. عبد المنعم حفني، الناشر مكتبة المدبولي، القاهرة، ط3، 2010م.
- معجم العلوم الاجتماعية، ناتاليا ليفريموفا، توفيق سلوم، دار التقدم – موسكو، ط1، 1992م.
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس القلقشندي، تحقيق: علي الخاقاني، مطبعة النجاح – بغداد، 1958م.